هل يعيد التاريخ نفسه ؟

في مطلع القرن الماضي، وفي خضّم الحرب العالميّة الأولى، تـمّ الاتّـفـاق على مصير منطقتنا العربيّة، وتـمّ الاتّـفـاق على تقاسمها وتوزيعها، كمناطق نفوذ واستعمار لـلـدول الكبرى.

في تلك الحرب انهارت الإمبراطوريّة العثمانيّة، وتمّ تقاسم تركتها، وفيها أيضاً أعلن «بلفور» عن وعده المشؤوم بإقامة دولة لليهود في فلسطين، ووضع «سايكس» و «بيكو» خريطتهما التي تقاسما فيها الأرض العربيّة، وأرسلت الجيوش من كلّ الدول كي يتمّ إنجاز ما اتّفق عليه على أرض الواقع.

ومن أجل عدم إجهاض ما اتّفق عليه، كان لابدّ من سلب شعوب هذه المنطقة القدرة على الفعل، فجاء الاستعمار المباشر بشكله العسكريّ، وفرض حـدوداً سياسيّة وجغرافيّة، لا تزال قائمة حتّى يومنا هذا.

عاشت المنطقة قرناً كاملاً على خلفيّة الصراع العربيّ الإسرائيليّ، وساهمت الـدول الاستعماريّة في حماية مشروع هذه الدولة عبر احتلالها العسكريّ في البداية، ومن ثمّ عبر خلق أنظمة حكم مرتبطة بها، تحمي إسرائيل من جهة وتُبقي على تبعيّة وتخلّف شعوبها.

إذاً، فقد كان القرن الماضي وفي أهـمّ نتائجه الحاضرة اليوم، والتي يمكن تلخيصها بترسيخ دولـة إسرائيل أوّلا، وفـي الإبقاء على شعوب هذه المنطقة مفقّرة ومهمّشة وغير فاعلة ثانياً، وفي عدم قيام أنظمة وطنيّة تحمل مشروعاً وطنيًّا، يمكن له أن يؤسّس لنهضة هـذه الشعوب كمقدّمة لامتلاكها حـقّ تقرير مصيرها.

اليوم، ومنذ مطلع القرن الحاليّ، فإنّ ما تشهده هذه المنطقة يشبه إلى حدّ كبير ما حدث في مطلع القرن الماضي، هاهي الحروب تشتعل من شاطئ المتوسّط إلى الخليج العربيّ وصولاً إلى اليمن ومصر وليبيا والجزائر وغيرها. من جديد تُدمّر المنطقة كي يُعاد رسم خرائطها الجيوسياسيّة، لكن بفارق أساسيّ وجوهريّ وهو: إخراج إسرائيل من خلفيّة المشهد، عبر إنهاء الصراع العربيّ الإسرائيليّ، واستبداله بخلفيّة أخرى لصراع جديد، قد يستنزف المنطقة قرناً آخر، وهو الصراع السنّيّ الشيعيّ.

وإذا كـان الـصـراع في القرن الماضي قد تمخّض عن ترسيخ وجود إسرائيل، وعن ترسيخ تخلّف هذه المجتمعات، وهشاشة بنيتها السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة، فإنّه - في القرن الحاليّ - يُراد له أن تنتقل إسرائيل من صفّ العدوّ، لكي تصبح دولة أساسيّة، لها دورها الأساسيّ والمحوريّ في صياغة الخريطة الجديدة لهذه المنطقة.

إنّ إعـادة رسم الخريطة الجيوسياسيّة للمنطقة، والـذي قد يطال حتّى تركيبتها الديموغرافيّة، والذي يجري العمل عليه فوق أشلاء شعوب بلداننا، ستكون الدول الأقوى في هذه المنطقة هي الحاضرة في صيغته الجديدة، وأقصد إسرائيل وإيـران وتركيا، بينما ستغيب عنه كلّ الدول العربيّة بلا إستثناء، بما في ذلك الدول التي تتوهّم أنّها قادرة على الفعل، وأقصد السعوديّة ومصر، واللتان لن تكونا بمنأى عن المصير الـذي وصلت إليه سورية والعراق واليمن وغيرهم.

باختصار، مـرّة أخـرى يُعاد استعباد الشعوب العربيّة، ويتمّ استبعادها عن إمكانيّة تقرير مصيرها، وتخضع من جديد لدورة تبعيّة جـديـدة، لا يعرف أحـد كـم ستطول، وإلـى مـاذا ستنتهي.

إذا كانت النخب السياسيّة والثقافيّة العربيّة، قد فشلت في القرن الماضي في إخراج الشعوب العربيّة من دائرة التبعيّة والتخلّف، وعجزت عن إنجاز مشاريعها الوطنيّة والديمقراطيّة، فهل ستعيد نفس التجربة السابقة، وتبقى عاجزة عن تلمّس طريقها لإخراج شعوبها من هذا المأزق التاريخيّ؟.

تُقدّم لنا الثورة السوريّة دروسـاً فائقة الأهمّيّة، وشديدة الوضوح لمن يريد أن يعي التاريخ جيِّدا، والتي يمكن البناء عليها، ليس في سورية وحسب، بل وفـي كـلّ المنطقة العربيّة، ويمكن على ضوئها أن نؤسّس لرؤية سياسيّة جديدة، تسهم في إطلاق إمكانات هـذه الشعوب، من أجـل قيام دول وطنيّة قابلة للحياة والتطوّر.

لعلّ أهمّ ما قالته الثورة السوريّة، هو: إنّ الطغيان بكلّ أشكاله العسكريّة والدينيّة والسياسيّة، لا يُفضي إلّا إلى استدامة التخلّف والتبعيّة، وإنّ حقوق الفرد والمواطنة والعدالة هي ركن الأساس لأيّ مجتمع يريد أن يعيش كما يليق بالإنسان، وإنّ العلمانيّة وحدها هي مخرجنا الوحيد للوصول إلـى دولـة المواطنة القابلة للحياة.

بسّام يوسف

"ملحمة حلب الكبرى"
كسر للحصار، وحلحلة لعقدة العملية السياسية

أعلن جيش الفتح يوم الجمعة ٢٨ تشرين الاول ٢٠١٦بـدء معركة «ملحمة حلب الكبرى» من المناطق الغربية لحلب بهدف كسر الحصار عن الأحياء الشرقية لها، وكان هذا التحرك مفاجئاً لقوات النظام وحلفائه من الروس والإيرانيين، ففي الوقت الذي تنشر فيه وسائل إعلام النظام أنباء عن انسحاب العسكريين من حلب، وتنشر أنباء مؤكدة عن قرب إنهاء المعارضة في الأحياء الشرقية لحلب، تقوم قوات المعارضة بالبدء بمعركة مباغتة استطاع فيها كسب مواقع جديدة واستراتيجية ، إذ استطاعوا وخلال اليوم الأول من العملية أربع نقاط مهمة وهي «معمل الكرتون، ومناشر مينان، وحاجزي الصورة وسواتر المستودع»، واستطاعوا في بداية اليوم الثاني من السيطرة بشكل كامل على ضاحية الأسد. لتتحول بعدها المواجهات على تخوم حي الـ ٣٠٠٠ شقة في الحمدانية، ليتمكنوا من السيطرة على مجموعة من المباني الاستراتيجية.

رغم أن المعارك ما زالـت بين كر وفـر، وأنباء متضاربة عن استعادة النظام لبعض النقاط التي خسرها في اليوم الأول، إلا أن المؤشرات بشكل عام تدل على تقدم المعارضة المسلحة، وعلى أن هذه المعركة معركة طويلة وليست عابرة، ولو كان فك الحصار عن حلب هو هدفها المعلن، إلا أن هدفها الحقيقي ربما يكون كسر المعادلة التي كانت تسوّق عن سقوط حلب بما يعني انتصار النظام عسكرياً بشكل حاسم، مما يجعله في حل من عودته إلى طاولات المفاوضات بحثاً عن حل سياسي.

وكان أنس العبدة، رئيس الائتلاف الوطني لقوى الثورة والمعارضة السورية، قد صرّح في تقرير نشر على الموقع الرسمي للائتلاف أن ملحمة حلب الكبرى، «تعتبر رسالة قوية لكل من روسيا وإيران وبشار الأسد». وأضاف «بوحدتنا في الميدان سيُهزم المستبد وأسيادُه المحتلون،» وبأنهم «لن يستطيعوا حسم المعركة عسكرياً وفرض املاءاتهم على الشعب السوري إلا أن ارادة الثوار أثبتت قدرتها على كسر جبروتهم وتفويت أهدافهم،»

كما أشار إلى أن «روسيا كانت تسعى لتفريغ حلب المحررة من سكانها بشكل قسري، وذلك من خلال استهداف المرافق الطبية والخدمية والترويج لما يسمى بممرات آمنة لإجبار المدنيين على المغادرة، وهو ما تم توثيقه بشكل كامل من قبل المنظمات الحقوقية.»

وكان مبعوث الأمم المتحدة الخاص إلى سوريا ستفان دي ميستورا قد قال في مؤتمر صحفي في جنيف عقده مع مستشار الأمم المتحدة للشؤون الإنسانية يان إيغلاند: «إنّ محادثات لـوزان بشأن الأزمـة السورية ما زالـت مستمرة، وآملا أن تتمخض عن نتائج إيجابية»، وأشـار معربا عن خيبة أمله في «بسبب فشل الهدنة في مدينة حلب»، مؤكداً إن «شروطا مجحفة منعت وصـول المساعدات الإنسانية إلـى حلب، داعيا إلـى توحيد الجهود من أجـل إيصالها إلـى هناك».

تبقى «ملحمة حلب الكبرى محاولة جديـدة لقلب المعادلة وخلط الأوراق والـذي ربما يعيد الجميع إلى طاولة المفاوضات لبدء العملية السياسية من جديد.

المحرر السياسي

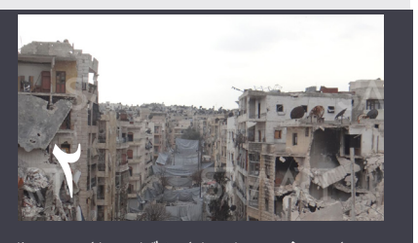
٢
حلب في ميزان المتغيّرات الجديدة

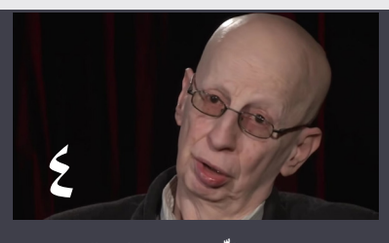
٤
حوار مع المفكّر سلامة كيلة* (٢٢)

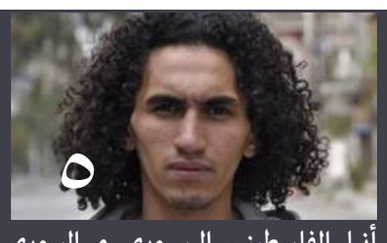
٥
أنـا الفلسطيني الـسـوري و السوري الفلسطيني في آن واحد .

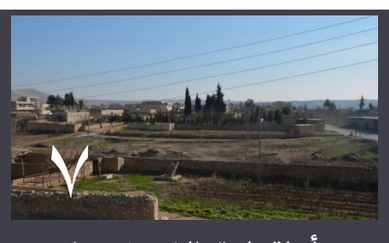
٧
مأساة بلدتي الشيوخ وصرّين
د. خولة حسن الحديد

٩
إدوارد سعيد .. تغريب الغرب

حلب في ميزان المتغيّرات الجديدة

مع استمراريّة الهجمات البربريّة على القسم الشرقيّ من مدينة حلب، ومع فشل مجلس الأمن الدوليّ في إيقاف ذلك الفصل الكارثيّ من المأساة السوريّة، ربّما لم تعد المبادرات الدوليّة والجهود الإنسانيّة كافية للحدّ من انعكاساتها على المدنيّين.

بل، وقد تتحوّل في كثير من الأحيان، إلى ورقة يستفاد منها في تأجيج النار المسلطة عليهم، كما حصل في مبادرة المبعوث الأمميّ الأخيرة، لإخراج مقاتلي النصرة من حلب، والتي تُرجمت إلى الروسيّة كتصعيد للهجمات العشوائيّة تحت مسمّى «محاربة الإرهابيّين».

تلك الهجمات القائمة على فكرة التدمير الكامل لمنطقة سكانيّة فوق رؤوس نحو ثلاثمائة ألف من قاطنيها، ما لم تتحقّق عمليّة خروجهم القسريّ منها، حيث جاءت الهدنة الروسيّة القصيرة بغية دفع المدنيّين قبل المسلّحين إلى الفرار من بيوتهم ومدينتهم، وحيث كانت السرعة في استئناف الحملة الجوّيّة الشرسة عليهم حين فشلت عمليّة تهجيرهم؛ فعن أيّة قوّة إرهابيّة يتحدّث الروس في عدوانهم السافر؟ وما هي الاتّجاهات المتوقّعة لهذه العدوان المعلن على حلب؟ وإلى أيّ حدّ تشكّل هذه الحرب النقطة الحرجة التي لا يمكن القفز عليها في سياق المتغيّرات الحاصلة على الأرض السوريّة؟.

بداية لا بدّ من القول: إنّ ما يجري اليوم في حلب، وقبل الحديث عن تعداد مقاتلي جبهة النصرة أو جيش الفتح فيها، وعدم خضوع قسمها الشرقيّ لسيطرتهم الكاملة كما في محافظة إدلب، ليس إلّا نتاجاً للتخطيط المسبق لهذه الحملة العسكريّة المستمرّة؛ فالمدينة التي شهدت ومنذ تمّوز ٢٠١٢ سيطرة لقوى المعارضة على قسم هامّ منها، شهدت وكغيرها من المناطق السوريّة العديد من معارك الكرّ والفرّ على نقاط التماس، دون أن تتحوّل إلى معركة مصيريّة. لكنّه ومع الإعلان والتحضير المسبق من قبل حزب الله اللبنانيّ لمعركة حلب الكبرى، بدأت الطائرات الروسيّة والسوريّة بطلعاتها المكثّفة، وبإلقاء المزيد من القذائف والصواريخ التدميريّة، ليتمّ بعد ذلك إحكام الحصار على قسمها الشرقيّ من قبل مختلف المليشيات الشيعيّة القادمة من العراق وإيران، ولتفشل كلّ المحاولات الدوليّة في إيقاف ذلك القصف الهمجيّ، أو في إدخال المساعدات الإنسانيّة،

فيما لم يجرِ الحديث من الجانب الروسيّ سوى عن فتح ممرّات لإخراج جميع الموجودين في ذلك القسم الشرقيّ من المدينة، بينما مازالت قوّات المعارضة متمسّكة بمواقعها رغم القصف الشديد، وساعية في كلّ لحظة لإعادة فكّ الحصار الذي حقّقته سابقاً، بالدعم الذي تلقته من جيش الفتح، الأمر الذي يجعل من تلك الحملة - غير القادرة على تحقيق أهدافها - حملة لا تحقّق سوى المزيد من القتل والتدمير العبثيّ، وتوجّب من الناحية الأخلاقيّة غضباً إنسانيًّا في كلّ بقاع الأرض، في ظلّ العجز الدوليّ عن إيقاف تلك الجريمة البشعة.

بالمقابل، فإنّ المتغيّرات الجارية على الأراضي السوريّة، وفي نصفها الشرقيّ والشماليّ على وجه الخصوص، بدءاً من التدخّل التركيّ واستمراريّته في تقليص مناطق السيطرة الداعشيّة، وصولاً لانطلاقة المعركة البرّيّة الحاسمة في الموصل وتزامنها مع الهجوم المرتقب على الرقّة، قد يجعل من الصراع الدائر حول مدينة حلب، صراعاً عبثيًّا للسيطرة على تلك البقعة المحدودة ببضعة كيلومترات مربّعة، كصراع يمكن أن يمتدّ لفترة زمنيّة طويلة، في ظل العدد الكبير من المقاتلين والمدنيّين المتحصّنين شرق المدينة، وفي ظلّ عدم توفّر القوى البرّيّة الكافية لمواجهتهم،

هذا الصراع المترافق مع الانحسار المتلاحق والمتوقّع للدولة الداعشيّة، ولسيطرة قوّات الجيش الحرّ على مناطقها، ممّا يجعل من المعركة الدائرة في حلب نقطة حرجة، يسعى نظام الأسد لبلوغها كنوع من استعادة سيادته على الأرض دون المقدرة على بلوغها، فيما تواجه القوّات الروسية المستميتة لتجاوزها السريع، إشكاليّة حقيقة في التغيّرات الحاصلة لتوزّع القوى شمال وشرق سورية، بينما لا يمكن أن تحقّق للميليشيات الشيعيّة الباحثة في معركتها الكبرى أيّ نصر قريب، بل وربّما يمكن أن تشكّل بداية لتراجعات لاحقة في حربها (المقدّسة) على الأرض السوريّة.

انطلاقاً من تلك المؤشّرات المستجدّة، لا بدّ من أن تتّجه العديد من الدول المعنيّة بالشأن السوريّ نحو مواقف سياسيّة جديدة، أو نحو مواقف يمكن أن تكون مختلفة عمّا سبقها من مواقف ثابتة من الصراع الدائر في سورية،

فالإدارة الروسيّة وعلى الرغم من مشاركتها المباشرة والواسعة في ذلك الصراع، لم تنجح في تثبيت دعائم نظام الأسد، وكذلك لم تستطع وعبر العمل السياسيّ من التوصّل إلى أيّة تفاهمات مع القوى الدوليّة الأخرى، في إيجاد المخرج المناسب لذلك النظام، بل واتّجهت وبعد الفشل الذي أصاب الاتّفاق الروسيّ الأمريكيّ، إلى المزيد من التصعيد العسكريّ الهمجيّ، وإلى الكفّ عن الحديث حول الحلّ السياسيّ، وصولاً إلى مطالبة النظام للإسراع في وضع دستور جديد، بغية إضفاء بعض من الشرعيّة الذي فقدها، مستنداً للموقف الإيرانيّ المتشدّد في الإبقاء على الأسد، ومحاولاً استمالة بعض الدول الأخرى نحو ذلك، كما جرى في انحياز الموقف المصريّ للموقف الروسيّ، في حين تتّجه الإدارة الأمريكيّة وكما يبدو لكسب المزيد من الوقت، وبالشكل الذي قد لا يكون متعلّقاً بالانتخابات الأمريكيّة، بقدر ما هو متعلّق بالإعداد لترتيبات جديدة للقوى المسيطرة على الأرض السوريّة، بدءاً من القوّات التركيّة وصولاً للقوّات الكرديّة وقوّات المعارضة السوريّة، قبل العودة لطرح الحلّ السياسيّ وفقاً للصيغة الدوليّة، وبالشكل القابل للتطبيق.

لؤي حاج بكري

دلالة السلطة في الفكر السياسيّ السوريّ

بعد ٤٩ عاماً مضت على حرب حزيران ١٩٦٧ والمعروفة بحرب الأيّام الستّة، كونها لم تدم طويلاً ربّما ثلاثة أيّام حقّقت فيها إسرائيل نصراً تاريخيّاً على عدّة دول عربيّة محوريّة (مصر وسورية والأردن وفلسطين) والتي شكّلت بنتائجها الكارثيّة نقطة مفصليّة في تاريخ المنطقة، فصار يؤرّخ ما قبلها وما بعدها، فعدا عن احتلال الأراضي في أربع دول، شكّلت هزيمة مدوّية للحكومات، كما للمجتمعات العربيّة ولنخبها، وفق كثير من المفكّرين والسياسيّين في وقتها.

بعد انتهاء الحرب / الهزيمة الفاجعة خرج الإعلام «الثوريّ» للأنظمة ليعلن النصر وببساطة لأنّ الهدف من الحرب كان إسقاط الأنظمة «الثورية» في كلّ من مصر وسورية، وهذا ما لم يتحقّق!

بالطبع، يعكس هذا المنطق خلاصة العقليّة السائدة في الفكر السياسيّ السوريّ الذي يعطي أهميّة محوريّة لدور السلطة وقدراتها الخارقة في تطويع الجميع، ووسيلة ناجعة لجني الثروة من جهة، ومن جهة أخرى يسخر من دور الإنسان الفرد كذات حرّة لها حقوقها وقيمها، فالسلطة بيد الحزب «الثوريّ» ولجنته العسكريّة كطليعة المجتمع بل كبديل للمجتمع، وقيادتها الملهمة المسخّرة لمواجهة الإمبرياليّة وربيبتها الصهيونيّة، هذه السلطة ما زالت على عروشها وتمارس دورها «الطليعيّ» الذي وفّرته لها الطبيعة، وبالتالي فقد ربحت المعركة ضد من احتلّ الأرض وهجر البشر.

من الطرف الآخر، النخب السياسيّة والأحزاب السياسيّة، وكلها ذات طبيعة واحدة أيدلوجيّة تقدّس دور الطليعة والقائد بغضّ النظر عن التلوينات، اختلفت على درجة الهزيمة، ومنها من دعم الرأي السلطويّ ودافع عن بقاء الأنظمة الثوريّة خاصّة كونها صديقة الاتحاد السوفياتي، وأن هذه النظم لم تضع البوصلة، بوصلة الموقف من الإمبرياليّة، والصداقة مع المعسكر الاشتراكيّ وعلى رأسه الاتّحاد السوفياتي.
قلّة من المفكّرين السوريّين اعتبروا ما حدث هزيمة كبرى للمجتمعات العربيّة، وأنّ هذه الحرب كشفت عن تخلّف بنى المجتمع العربيّ ووعيه المتأخّر، ودعت بذات الوقت وبشكل نخبويّ لتوعية المجتمع بوعي تاريخيّ مطابق يتجاوز البنى المجتمعيّة المتأخّرة لتحقيق أهداف الأمّة.

ما يهمّنا، هو أن نراجع قليلاً كيفيّة تعامل ذات العقل بشقّيه الحاكم والمعارض لقضيّة الحرّيّة والاستبداد والسلطة.

مع أولى صيحات المتظاهرين في دمشق ودرعا، التي سرعان ما انتشرت في مختلف الجغرافيّة السوريّة، تلك الصرخات كانت بالأساس احتجاجاً ورفضاً لبنية الاستبداد التسلّطي الذي يستبيح البلاد وما فيها، فمستوى الذلّ والإهانة التي عُومل بها أطفال درعا وذووهم كان الدافع لشرارة الثورة، أي كردّ فعل ورفض لتركيبة تسلّطية عنيفة طائفيّة تمييزيّة تستهين بكلّ كرامات ومشاعر ومصالح الناس، أي أنّ بنيتها بمستويات متعدّدة، ووجهتها واحدة: تحقيق الخضوع وخلق رعايا لا مواطنين.

كان منطق وخطاب السلطة ممثَّلا برأسها في نهاية آذار من العام ذاته واضحاً، التمسّك والتمترس بالسلطة بشكل مطلق كأداة إخضاع ووسيلة جني الثروة، كما كان خطاباً منسجماً مع النظريّة الانقلابيّة للبعث التي تعتبر الوصول للسلطة وبأيّ وسيلة الهدف الرئيسيّ لها.

لم تدرك الأحزاب السياسيّة والمصنّفة بـ «المعارضة» عمق الصيحات ومداها، رغم أنّها أو أكثرها قد عانى الكثير من ممارسات الإخضاع والقهر، فبدت مرتبكة وغير حاسمة في تعاملها مع الحدث، كفعل تغييري كبير، فرغم التخلّي «المعلن» عن أيدلوجيّتها التي تربّت على مفاهيمها تعتمد في دورها على كونها الطليعة أو الصفوة أو النخبة التي «قدّر» لها أو من صفاتها التكوينيّة أن تكون قائدة للقاعدة التي تعتمدها، رغم ذلك، لكنّ التجربة بيّنت أنّها ما زالت أسيرة لجذورها الأمّ، فطرحت نفسها مباشرة كطرف «ثالث» ناصح وموجه أيّ قياديّ، وعيناها تتوجّه مباشرة نحو السلطة كوسيلة للتغيير و»البناء».
زاد من شدّة تصوّراتها ما حدث في ليبيا عندما استجاب مجلس الأمن بعد طلب المندوب الليبيّ في الأمم المتّحدة ومن ثمّ جامعة الدول العربيّة للتدخّل وإزاحة القذافي عسكرياً، فكانت المراهنة على التدخّل الغربيّ لحسم الأمر والإطاحة بنظام الأسد، لدرجة أنّ مناشدة الجامعة العربيّة والأمم المتّحدة للإطاحة بالنظام المجرم الذي يرتكب المجازر، صارت المطلب السياسيّ الوحيد.

من ناحية ثانية، ومع زيادة عنف أجهزة النظام من اعتقال وتعذيب وقتل يوميّ والدخول بحالة العسكرة، التي كان مبرّرها الوحيد أنّها ردّة فعل تجاه القمع ولحماية المتظاهرين، ولم تكن خياراً، وما رافقها من تشكيل كتائب وفصائل عسكريّة عفوية، سرعان ما التقطها الرعاة المحلّيّون والإقليميّون كوسيلة لاستملاك وإخضاع الثوّار و»خندقتهم» كما يريدون، فالمال يوجّه، وتأتي الأيديولوجيا للتعليب والتغليف ليس أكثر.

كانت معظم الكتائب بتركيبتها الاجتماعيّة من الفئات الريفيّة ومن أحزمة الفقر المهمّشة حول المدن، استطاعت أن تلبسها الدول الداعمة وقمع النظام المفرط لباساً أيديولوجيًّا إسلاميًّا، سرعان ما تنامى جزء منها نحو التطرّف، فأسّست هيكليّة تعتمد في قليل منها على الأصول وأكثر على التطلّع نحو السلطة والنفوذ، فكان الأمير والشرعيّ والمسؤول الأمنيّ والقائد العامّ، وكلّها تشير بشكل ما إلى الازدواجيّة في العقليّة، ممّا شكّل جزراً متناثرة ومتجاورة أحياناً من المقاتلين، لا يجمعها رابط وخطّة في القتال ضدّ قوّات النظام، كما أنّ فكرة الحصول على الغنائم، والاعتماد على الشرعيّين شكّلا عنصرين مفرّقين، رغم بيانات المطالبة بالتوحيد والتقارب من الجميع (صار موعد الآذان والسحور مختلفاً ومجالاً للفتاوى)، ممّا أفقدها أيضاً تقديم نموذج أخلاقيّ بديل ومتفوّق على نموذج النظام المتهالك، لكن يبدو أنّ النوايا لا تصنع الحدث بقدر ما المصالح الخاصّة ومصالح الداعمين.

ضمن تلك الوقائع، تراجعت كثيراً قيم الحرّيّة المناهضة للاستبداد، وصار الكثير من الفصائل وقادتهم وشرعييهم يمارسون عمليّات الاعتقال والتعذيب والخطف بحقّ الناشطين والمختلفين، أي الغير قابلين للخضوع، كما صار المثل الأعلى «للقادة» هو ضبّاط الأمن تحديداً بسلوكهم ومظاهر الحماية والسيّارات وغيرها، إضافة للخطاب المعادي صراحة لقيم الحرّيّة التي صرخ من أجلها السوريّون ومات واعتقل من أجلها الكثيرون.

شكّل سعي المعارضة نحو السلطة الموقف نقطة ضعف ومقتل، فتغاضيها عن عمليّات الخطف والاعتقال والتعذيب التي مارستها عدّة فصائل إسلاميّة، وسعيها لاسترضاء القادة العسكريّين بوسائل فاسدة طمعاً في الحظوة وتقاسم الكعكة الموعودة، جعلها غير قادرة على تأسيس خطاب تحرّريّ مناهض للاستبداد، فمناهضة الاستبداد والتسلّط تتطلّب الوضوح والانحياز الكامل لقضايا الحرّيّة والمساواة، كما التخلّص من وهم السلطة بما تفرضه من ارتهان وخضوع لمصالح واملاءات غالبها يتنافى مع المصلحة الوطنيّة ومع قيم الحرّيّة، وهذا ما ينبغي على الجميع من قوى وطنيّة وديمقراطيّة ومثقّفين وشخصيّات وطنيّة العمل عليه بغاية خلق تيّار تحرّري مناهض للاستبداد المتمثّل أوّلا في النظام التسلّطيّ، وفي الحركات المتطرّفة ثانياً، بدلاً من اللهاث وراء الأوهام الخارجيّة للوصول للسلطة، الخيار الذي كلّف السوريّين كثيراً من الموت والتدمير والتشريد.

القامشلي، قامشلو، القامشلية.... أيّها مدينتي ؟

كنت في الصف الثامن عندما دخل علينا أستاذ مادة الاجتماعيات ونحن نتناقش فيما بيننا عن أصل تسمية مدينة القامشلي التي لا تبعد عن قريتنا سوى بضعة كيلومترات، فسارع الأستاذ الذي كان عضوا في قيادة الفرقة التابعة لحزب البعث في قريتنا وقال إن أصل التسمية يعود إلى قتال القبائل العربية على نبات القامش والذي هو نوع من القصب ينبت على ضفاف نهر الجغجغ وكل يقول القامش لي حتى سميت المدينة بذلك وبدأ يتابع بالقول إن القامشلي جزء من الوطن العربي الذي يمتد من المحيط إلى الخليج ومن القامشلي إلى مقديشو وهكذا ترسخت في اذهاننا أن مدينتنا الصغيرة جزء من إرث قومي عروبي حاول حزب البعث التستر به لحكم سوريا لعدة عقود.

ولما انتقلت إلى مدينة القامشلي لإتمام دراستي الثانوية نظرا لعدم وجود ثانوية في قريتنا التقيت في المدينة للمرة الأولى بأصدقاء جدد من السريان والأرمن والأكراد والأيزيديين وهناك كوّنت عدة صداقات مع هؤلاء الشبان الذين لا أعرف عنهم أكثر مما يعرفون عني ومرة خلال إحدى النقاشات مع صديقي بهزاد القادم من ريف عامودا أخبرني أن مدينة قامشلو كما أسماها هي في الأصل قامت بجانب تلة أثرية بالقرب من عامودا تدعى تلة موزان ويعدها الأكراد حاضرة كردية قديمة وتسمى حضارة ميديا وهي قبل الفتح الإسلامي بعدة قرون وأن الشعب الكردي يتطلع لإعادة أمجاد تلك الحضارة وتكون قامشلو عاصمتها، وبعد فترة التقيت بصديق سرياني فسألته عن أصل تسمية المدينة فحدثني عن أن أصل التسمية جاءت من تل زالين التاريخي والذي يقع شرقي القامشلي حالياً وبيت زالين في السريانية القديمة تعني مكان القصب ودعاها السريان القامشلية.

وهكذا راودتني الحيرة حول مدينتي وإلى أين انتمائي هل أصولها حثية فعلا كما يقول الأكراد أم سريانية أم أنها عربية بتفسير بعثي.

بعد الثورة انتقلت النقاشات من الاختلاف على أصل التسمية إلى الاختلاف على الوجود التاريخي للمنطقة ككل وباتت الدعوات تظهر علانية بين مختلف المكونات كل يحاول إثبات أحقية وجوده فيها، مع أن المدينة بحسب الباحث مهند الكاطع لم تكمل من عمرها قرنا من الزمن فقد أنشأها الفرنسيون جنوب مدينة نصيبين عندما قاموا بإنشاء ثكنة للحامية الفرنسية عام ١٩٢٥م وسبب التسمية يعود إلى القصب المنتشر على نهر الجغجغ والذي يدعى [القامش] باللفظة العثمانية التركية (Kamış) ، اما «لي» فهي لاحقة تضاف الى اسماء الدول او المدن او الاماكن لتنسب الشيء الى المكان وتتبع قاعدة التوافق الصوتي فتمت تسمية المدينة من قبل الفرنسيين بالقامشلية وهناك نقش على مبنى البلدية وثق فيه هذا الاسم .

بعد خمس سنوات على الثورة وبعد عشرات الأسئلة التي طرحتها على من التقي من أهل المدينة وصلت إلى أن مكان المدينة كان مستنقعاً ينتشر فيه القصب حول نهر الجغجغ ولا يصلح للسكن، إضافة إلى أن المعلومات التاريخية تثبت أن هجمات القبائل البدوية المتواجدة على أطراف بلدية الشام من جهة الجزيرة أسهمت في منع استمرار أي حضارة في المنطقة ولم تنقطع تلك الهجمات حتى وجدت حكومة ذات سلطة بإدارة فرنسية في المنطقة، والمدينة تكونت سكانيا نتيجة هروب السريان وبعض قبائل الأكراد من جنوب شرق تركيا نتيجة الظلم الاتاتوركي ولم تجد ملجأ سوى الاستقرار بعيدا عن أعين السلطات التركية وبقرب الحامية الفرنسية وبنفس الفترة كانت القبائل العربية على أطراف الجزيرة تنتقل من مرحلة الرعي إلى الزراعة وبدأت تقترب من جبال طوروس لخصوبة الأرض هناك وهكذا تكونت المدن والقرى في معظم الجزيرة العليا بخليط سكاني متجانس عربي كردي سرياني متخذين شعارهم قول كارل ماركس في الديالكتيك أن ظروف وثقافة الإنسان تتغير بحسب تغيّر ظروف الإنتاج وبالتالي حاجة البدو للانتقال من الرعي إلى الزراعة اوصلهم للمنطقة وحاجة السريان والاكراد للأمن كان سببا كذلك في وصولهم للمنطقة.

ونتيجة عجز كل المكونات في الجزيرة تقريباً عن إثبات وجود تاريخي يعتبر ذو قيمة قبل قرن من الآن، تلجأ اليوم هذه المكونات إلى فرض سياسية الامر الواقع وإثبات الموجودية قدر المتاح، فعند سيطرة تنظيم الدولة على معظم الجزيرة قبل عامين ادعى أنه حامي للمكون العربي وبدأ بتهجير السريان وتهديد الوجود الكردي في بعض المناطق، وبعد سيطرة وحدات حماية الشعب ادعت أنّها حامية للوجود الكردي في الجزيرة وبدأت

تمارس التهجير بحق عشرات القرى العربية بحجة مناصرة الإرهاب، النظام من جهته ادعى أنه حامي الأقليات وجند جماعة من السريان تحت اسم السوتورو كمليشيا تدّعى الدفاع عن السريان في القامشلي وماحولها.

ولكنّ مجرى الأحداث أكد أن تنظيم الدولة هجّر العرب قبل غيرهم ممن رفضوا سياساته، وأن وحدات الحماية طردت كل من يعارضها من الأكراد خارج الجزيرة وبنفس الوقت ترك معظم السريان مدينة القامشلي هربا إلى اوربا بسبب كثرة التهديدات ولم يبق من السريان في المنطقة سوى بضعة آلاف.

القوى المتصارعة في الجزيرة اليوم كلها تحاول إثبات الأحقية التاريخية في المنطقة وكأننا نرجع إلى حروب ما قبل الحداثة حيث القوميات تسيطر على العقل الجمعي، ومازالت مدينتي ضائعة بين المتصارعين وتختلف تسميتها بحسب الغلبة بحيث لم أعد أعرف أن الأصل في الوجود في القامشلي يكون للإنسان كقيمة أصيلة أم لخلافات التسمية والتاريخ المجهول.

سامر الأحمد

التطرّف وخطط الاندماج

لا أدري لماذا كلّما ذُكرت «داعش» يقفز إلى ذهني فوراً أنّ الأمر ليس أكثر من لعبة مخابرات سمجة، وبالتالي فإنّه من الصعب عليّ كثيراً أن أتناولها كحالة تنظيميّة أو سياسيّة لها مرجعيّاتها النظريّة أو السياسيّة أو مشاريعها طويلة الأمد؛ لكن، وبغضّ النظر عن هذا الأمر، ورغم أهمّيّته الشديدة، فإنّني سأحاول أن أرصد الموضوع من زاوية أخرى، وأقصد ارتدادات إنشاء مثل هذه الظواهر وتفاعلاتها بعيداً عن جوهرها. وبالتالي، فإنّ رصد تجلّياتها سواء داخل المجتمعات التي وُجدت فيها أو في المجتمعات البعيدة عنها كالمجتمعات الأوربّيّة مثلاً، هو ما سوف أتناوله هنا.

يجب أن نعترف بداية أنّ التطرّف هو ظاهرة موغلة في التاريخ البشريّ، تتقدّم في مراحل منه أو تتراجع، وتتقدّم في مجتمعات بينما تتراجع في مجتمعات أخرى، وفي كلّ الحالات فإنّ إرجاع ظاهرة التطرّف إلى أسبابها الاقتصاديّة والاجتماعيّة والسياسيّة هو أكثر نجاعة بكثير من ربطها بأديان أو مكوّنات طائفيّة أو عرقيّة.

إنّ القول أيضاً، إنّ التطرّف هو نتاج عمليّة تضليل أو غسل للعقول، ما هو إلّا محاولة لتغييب الأسباب الأساسيّة الأكثر أهمّيّة، فالتطرّف في جوهر حضوره النفسيّ يرتكز على قناعة عميقة بحالة ظلم، أو تهميش لايمكن الانتهاء منها الّا بالقوّة، أو بقناعة عميقة بقداسة المهمّة الموكلة للمتطرّف، وبالتالي فإنّ للتطرّف أسبابه المتعدّدة، وأدهى التطرّف هو ما اجتمعت عدّة أسباب له في حالة واحدة.

إنّ حصر الإرهاب في صيغته الدينيّة، والتركيز على إلصاقه بالإسلام، وأنّه يتّجه من داخل الإسلام إلى خارجه، هو فعل سياسيّ وإعلاميّ متعمّد، وليس فعلاً معرفيًّا أو بحثيًّا، ويمكننا ببحث أكاديميّ عاديّ أن نجد أنّ التطرّف هو سمة متعدّدة الأوجه أحدها السمة الدينيّة، ويمكننا أيضاً أن نجد الكثير من التطرّف ليس إسلاميًّا، وبإحصائيّة بسيطة سنجد أنّ ما سمّي بالتطرّف الإسلاميّ كانت النسبة العليا من ضحاياه هي من المسلمين.

إنّ تصوير السياسات الأوربّيّة أو الأمريكيّة – وغيرها - على أنّها سياسات مستهدفة من التطرّف، وأنّها فقط تواجهه، ليس صحيحاً تماماً، وليس من الصحيح تبرئة هذه السياسات، لا بل من الضروريّ جدًّا البحث عن شراكتها في تخليقه واستدامته أيضاً. إنّ التصدّي للتطرّف، هو مهمّة الثقافة والقيم البشريّة أوّلا، بغضّ النظر عن بيئته أو حامله، وإنّ تجاهل التطرّف أو الظلم في مجتمعات ما، لن يحمي المجتمعات الأخرى من تداعياته، فالعالم أصبح أصغر من أن يحجب صراخ المظلومين - في أيّة منطقة منه - عن غرف نومنا حتّى ولو أغلقنا نوافذها.

إذا أردتُ أن أخصص ما تبقّى للحديث عن التطرّف داخل الجاليات الإسلاميّة الموجودة داخل المجتمعات الأوربّيّة، فإنّني أميل إلى تحديد عاملين أساسيّين في تعزيز هذه الظاهرة.

العامل الأوّل: هو تحدّي الهويّة، بصيغة أخرى هو خوف هذه الجاليات من فقدان هويّتها، وهو خوف يفترض أن يتراجع كلّما تقدّم الزمن بهؤولاء القادمين، وخصوصاً في الأجيال اللاحقة, لكنّ الغريب أنّ خفوت هذا التحدّي هو أقلّ كثيراً ممّا يتوقّعه المرء، ولا تزال الأجيال الثانية أو الثالثة من اللجوء تعيش هذا الخوف، وبالتالي فإنّ سؤالاً ملحًّا يجب طرحه هنا وهو: لماذا فشلت المجتمعات الأوربّيّة أو السياسات الأوربّيّة في دمج المهاجرين إليها بعد زمن طويل من قدومهم؟

يمكننا بإجراء مقارنة بسيطة بين نسبة التطرّف في بعض الجاليات وبينها في جاليات أخرى، ومحاولة ربطها بالظروف التي تعيشها مجتمعاتهم الأمّ أن نلاحظ أنّ القادمين من مجتمعات استقرّت - إلى حدّ ما - هم أقلّ تطرُّفا من القادمين من مجتمعات لا تزال أزماتها الاجتماعيّة متفاقمة، على الرغم من أنّنا سنجد أنّ هؤلاء قد يكونون - رغم تباينهم - من معتنقي دين واحد.

أمّا العامل الثاني: فهو التحدّي الاقتصاديّ والتعليميّ وتحدّي اللغة، وهي كلّها أسباب تحدُّ من قدرة القادم على الانخراط في مجتمعات لها معاييرها الصارمة في قبول الآخر، فالعلاقة مع القانون ليست توقيع عقد، هي باختصار ثقافة طويلة تنتجها علاقة يوميّة مع هذا القانون، وينتجها إحساس بأنّ القانون هو مصلحة الشخص، وليس تعبير عن سلطة تحدُّ من حرّيّة هذا الشخص.

باختصار: إنّ الهروب من تحديد الأسباب العميقة لفشل الانخراط في المجتمعات الجديدة وحصرها بمظاهر هامشيّة لن يساعد في حلّ المشكلة.

يمكنني، بعجالة هنا أن أصنّف الاندماج داخل المجتمعات إلى أربعة مستويات:

١ - المستوى القانونيّ، وأقصد به الحصول على الوثائق القانونيّة للوجود الشرعيّ.

٢- المستوى الإجتماعيّ، وأقصد به تعلّم اللغة والحصول على عمل.

٣- الاندماج الثقافيّ، وأقصد به تبنّي ثقافة المجتمع والتعامل معها بصفتها مكوّن رئيس في الثقافة الشخصيّة.

٤- المستوى الرابع، وهو اندماج الأهداف والقيم العليا، وربّما يمكن تسميته اندماج الهويّة أيضاً.

للأسف، فإنّ الاندماج لم يتجاوز عند النسبة الساحقة من المهاجرين حدود المستوى الثاني، رغم مضي زمن طويل على وجودهم، وهذا دليل على فشل الخطط المعتمدة.

بسّام يوسف

نساء على هامش الحياة

ثمّة فئة من النساء ليس بوسع أيّ شخص أنْ يدرك حجم الجمال والسحر والخصوصيّة في هذه الفئة التي تختلف عن فئة النساء المعروفة لدى الجميع أو الفئة المعتادة في قصص الحبّ عبر الأفلام والروايات وفتيات الأحلام، هي فئة تكاد تكون أقلّ من عاديّة أو عاديّة في أفضل الأحوال من حيث وجهة نظر أولئك الذين ينتمون لرؤية فئة النساء المعروفة العائمة على السطح من نساء فنّانات وكاتبات وفيسبوكيّات وخرّيجات الجامعة وجميلات الهيئة وصاحبات مناصب وذوات أحلام تقليديّة وحبّ الظهور.

بينما تلك الفئة التي على هامش الحياة هي فئة تمتاز ببناء دراميّ غير تقليديّ، إذا استطاع المرء معرفة الواحدة منهنَّ معرفة حقيقيّة، بسيطات في الحياة، وفيّات في الحبّ، وغالباً لم يكن الحظّ جيِّدا معهنَّ فيما يخصّ الدراسة والتعليم، وفي داخل الواحدة منهنَّ مسحة جمال ليس بوسع أيّ شخص أنْ يدرك هذه المسحة ما لم يكن على درجة عالية من دقّة النظر وخصوصيّة الأحاسيس في بؤبؤ العين، وتفاصيل ردود الأفعال في شرارات تبدأ ولا تنتهي بحكم الفطرة والعفوية والبساطة التي تقوم عليها هذه الفئة.

لا تخلو حياة أيّ فنّان أو رسّام أو رجل أعمال من وجود امرأة من هذا النوع عن طريق المصادفة في غالب الأحيان. وعادة، تكون هذه المرأة حالة ثابتة ومستقرّة مهما كان عدد النساء في حياته، فهي امرأة غير قابلة للتطوّر أو التراجع، ثابتة الحال منذ بدء الشرارة الأولى وحتّى تتابع الشرارات المتشابهة والدائمة الحال، فهي لا تخضع للتأثيرات العلميّة والمعرفيّة وتجارب الحبّ والعلاقات التي تتبعها الفئة الثانية من النساء . الغريب في الأمر، أنّ هذه الفئة من النساء تمتاز بصفات خاصّة تبدأ من الاسم ولا تنتهي عند شغفهنّ في التأمّل على بساطته، فعادة يكون اسم الواحدة منهنّ اسماً عاديًّا ولا يحمل بريقاً على عكس بريق أسماء الفئة الثانية، ومع الأيّام يأتي البريق بحكم بساطة الاسم وحكم حجم المشاعر والأثر الذي تتركه هذه المرأة العادية في روح وذاكرة الرجل الذي يلاحظ الفرق الغريب بين نساء الفئتين.

وقد قدّمت لنا بعض الأفلام والمسلسلات العربيّة هذه المرأة على أنّها لا تصلح إلّا للزواج في حياة البطل الذي يتزوّجها لأجل إنجاب الأولاد ورعاية شؤون بيته، بينما علاقاته تدور بين نساء الفئة الثانية، ظنًّا منه أنّ هذه الفئة غير جديرة بقصص الحبّ ودراما الحياة، وهنا الأمر لا يتعلّق بقصص الشرف أو قصص الأدب بقدر ما يتعلّق بقصص حبّ المظاهر لدى الرجل الذي تكون نظرته خاطئة صوب الفئتين معاً بخصوص حبّ التملّك وحبّ الظهور، لكنّ حديثنا يدور بالدرجة الأولى عن فحوى طابع هذه الفئة المغمورة المشاعر والخصوصية وتصديرها على أنّها فئة عابرة خالية من البريق بحكم الطابع الذي هي عليه.

عادةً، تكون هذه المرأة عانساً أو عاملة في معمل سكاكر أو ورشة خياطة أو ممرّضة عند طبيب تدير شؤون أسماء المرضى وغرفة الانتظار، وإنْ كان هذا الأمر صحيحاً وواقعيًّا فهو لا يمكن أنْ يحطّ من شأن هذه المرأة التي تحمل في داخلها التفاصيل الرقيقة التي قد تفوق بها تفاصيل نساء الفئة الثانية ذات الطابع المعروف والمشهور والذي يعتبره الناس طابعاً مثاليًّا للمرأة المُشتهاة.

راهيم حسّاوي

حوار مع المفكّر سلامة كيلة* (٢/٢)

«إسرائيل»:
النظام السوريّ يعرف حدودنا الحمراء
..ويلتزم بها دون أن نقولها أصلاً

إنّ صناعة الحركات الراديكاليّة عبر التاريخ معروفة من قبل أجهزة الاستخبارات، إضافة إلى عوامل العنف والظلم والتهميش التي تجعل من الضحيّة متطرّفًا في غالب الأحيان، خاصة في الحروب. تنظيم «داعش» الذي احتلّ المرتبة الأولى في العالم كتنظيم متطرّف، هل برأيك كمفكّر ومثقّف عربيّ أنّ هذا التنظيم سيعمل على تفكيك الوطن العربيّ على المدى البعيد؟ أم أنّ وظيفته الأولى تشويه الإسلام وإعطاء نظرة سلبيّة عنه في العالم (المسيحيّ)؟

سلامة كيلة: تشويه الإسلام هذا المستوى الثاني في الأهداف؛ أمريكا والغرب والنظم الإمبرياليّة الغربية، لكي تبرّر سيطرتها على البلدان العربيّة تريد دائماً ما يقنع شعوبها بهذه الخطوات، لهذا تشيطن الآخر للقول إنّ علينا التدخّل، وهذا ما ظهرَ في ١١ سبتمبر ٢٠٠١، إذ أنّني لا أشكّ أنّ المخابرات الأميركيّة لها دور أساسيّ في هذا الحدث. ولقد كان واضحاً أنّ أمريكا ترتّب منذ انهيار الاتّحاد السوفيتّي مدّ دورها العالميّ وسيطرتها العالميّة وتدخّلها العالميّ واحتلالها لمناطق أساسيّة في العالم.

من كان يقرأ مجمل الاستراتيجيّات منذ عام ٨٧ و ٨٨ ـ والتي يسمّونها (مشروع القرن الأمريكيّ القادم)، يلمس أنّ هذا الوضع قائم، ولكنّ كان وجود الاتّحاد السوفيتّي يمنع هذه الاستراتيجيّة، لهذا بمجرّد ما بدأ انهيار

الاتّحاد السوفيتّي انتقلت أمريكا لتحقيق ذلك، وبدأت تحوّل المجموعات التي درّبتها في أفغانستان بكلّ سرّيّة لكي تكون هي «الشيطان الأكبر» الذي يبرّر التدخّل.

ولهذا عملت على دعم تأسيس تنظيم القاعدة لكي يكون هذا الخطر المرعب.

ومن يعود إلى ما كُتب عن تنظيم القاعدة بعد ١١ سبتمبر، سيتّضح له أنّ ما يُقال الآن عن «داعش» كان يقال عن تنظيم القاعدة، بكلّ تفاصيله المتمدّدة، من الخطر الرئيسيّ الذي يخترق عشرات الدول والذي يشكّل تهديداً حقيقيًّا، وبالسلاح النوويّ.

لذا كان كلّ هذا الخطاب قائماً في ذلك الوقت. لهذا أصبح مطلوباً أن تشيطن هذه المناطق باسم الإسلام. وهذا أساساً ما كتبه «صامويل هنتنجتون».

فكتابه كان في البداية كتاباً استراتيجيًّا ولم يكن كتاباً بمعنى أنّ مثقّفا جلس ليكتب كتاباً ويضع توقّعاته، كان يقول كيف نصنع صدام الحضارات. وهذه إجابة عن سؤال صناعة صدام الحضارات؛ وفي الواقع، أصبح دور

هذه التنظيمات وخصوصاً «داعش»، هي مبرّر تدخّل لفرض سياساتها، يعني مثلاً في العراق، «تنظيم دولة العراق» كان جزءاً من الاستراتيجيّة الأمريكيّة لترهيب المقاومة العراقيّة.

من كان يقرأ مجمل الاستراتيجيّات منذ عام ٨٧ و ٨٨ ـ والتي يسمّونها (مشروع القرن الأمريكيّ القادم)، يلمس أنّ هذا الوضع قائم، ولكنّ كان وجود الاتّحاد السوفيتّي يمنع هذه الاستراتيجيّة، لهذا بمجرّد ما بدأ انهيار

الاتّحاد السوفيتّي انتقلت أمريكا لتحقيق ذلك، وبدأت تحوّل المجموعات التي درّبتها في أفغانستان بكلّ سرّيّة لكي تكون هي «الشيطان الأكبر» الذي يبرّر التدخّل.

ولهذا عملت على دعم تأسيس تنظيم القاعدة لكي يكون هذا الخطر المرعب.

ومن يعود إلى ما كُتب عن تنظيم القاعدة بعد ١١ سبتمبر، سيتّضح له أنّ ما يُقال الآن عن «داعش» كان يقال عن تنظيم القاعدة، بكلّ تفاصيله المتمدّدة، من الخطر الرئيسيّ الذي يخترق عشرات الدول والذي يشكّل تهديداً حقيقيًّا، وبالسلاح النوويّ.

لذا كان كلّ هذا الخطاب قائماً في ذلك الوقت. لهذا أصبح مطلوباً أن تشيطن هذه المناطق باسم الإسلام. وهذا أساساً ما كتبه «صامويل هنتنجتون».

فكتابه كان في البداية كتاباً استراتيجيًّا ولم يكن كتاباً بمعنى أنّ مثقّفا جلس ليكتب كتاباً ويضع توقّعاته، كان يقول كيف نصنع صدام الحضارات. وهذه إجابة عن سؤال صناعة صدام الحضارات؛ وفي الواقع، أصبح دور

هذه التنظيمات وخصوصاً «داعش»، هي مبرّر تدخّل لفرض سياساتها، يعني مثلاً في العراق، «تنظيم دولة العراق» كان جزءاً من الاستراتيجيّة الأمريكيّة لترهيب المقاومة العراقيّة.

بهذا الدور لـ «داعش» في كلّ هذه المناطق، ومن ثمّ استغلّته في العراق كما أشرت.

الآن في سورية تلعب لعبة ليس لأنّها تريد العودة إلى سورية، بل لأنّها تريد أن يكون دورها قائماً مع روسيا في سورية لكي يُفرض الحلّ. فتراها تلعب بهذا التنظيم، وتجد أنّ الكثير من قياداتهِ تعمل مع الأمريكان؛ وقد قيل إنّ «داعش» تتشكّل من كبّار ضبّاط الجيش العراقيّ.

حاولت أن أدقّق في الفترة الماضية، فوجدت أنّ كلّ من قتل من كبّار الضبّاط، ليس له علاقة بالعراق، عدا «أبو بكر البغداديّ» كان إخوان مسلمين.. «أبو عمر الشيشاني» جورجي مخابرات روسيّة، مسؤول النفط تبيّن أنّه كويتيّ، شخص آخر مسؤول الجانب العراقيّ يحمل جنسيّة سعوديّة، وبالتالي كلّ من يتابع مقتل القيادات، سيكتشف أنّ العراقيّين أقليّة وليسوا ضبّاطا في الجيش أصلاً. وهذا وهم إشاعته كان المقصد منه أنّ هذه الوحشيّة هي نتاج النظام العراقيّ، وليس نتاج وكالة المخابرات الأمريكيّة وهوليود.

ونجح هذا الجزء؛ ومن ثمّ حينما انسحبت أمريكا تراجع الاهتمام بهذا التنظيم، كانت إيران دخلت على الخطّ، وسيطرت عليه، ووظفّته في الصراع ضدّ الحراك الشعبيّ الذي بدأ مع الثورات العربيّة وخصوصاً في المناطق الغربيّة، ولقد حاول في النهاية «نوري المالكي» أن يستخدمه لكي يعود إلى الحكومة، فاكتشفنا أنّ أمريكا تعدّ في نفس الوقت لكي تستغله، لتعيد معادلة العراق التي اختلّت بعد انسحابها منه، والتي فرضت أن تسيطر إيران على النظام العراقيّ، لهذا بات عليها أن تتدخّل عسكريًّا بحجّة «داعش»، من أجل أن تعدّل وضع السلطة العراقيّة وتصبح هي المهيمنة، وأيضاً كي تبقي عدداً من الجنود الأمريكان، كان مقرَّرا أصلاً قبل الانسحاب أن يبقوا في العراق بين ١٠ إلى ١٥ ألف جنديّ.

والآن هذا يحدث على الأرض والمعادلة تحدث. والآن أمريكا ستعيد بناء الجيوش وستعيد بناء المعادلة السياسيّة، ومن ثمّ بدأ «داعش» ينهار، وكأنّ الأمور بسيطة، فالبداية ضخّموا خطره إلى حدّ أنّه يحتاج إلى تدخّل أمريكيّ. في النهاية ينهار ببساطة.

والآن الأمريكان بدؤوا يحققّون مطالبهم، وفي اللحظات التي كانت تشعر أمريكا أنّ إيران تلعب، تبيّن أنّ تنظيم «داعش» قادر على هزيمة «الحشد الشعبيّ».

بينما، حين تتدخّل أمريكا تهزم «داعش» ببساطة. وهذه هي اللعبة؛ لكنّ في سورية اللعب ارتبط بعديد من الأطراف أيضاً، النظام وإيران. النظام لعب بالمجموعات الأصوليّة، حينما دعم تأسيس النصرة وأخرج من كان لديه من (الجهاديّين).

ومن ثمّ دخلت إيران بمجموعات «تنظيم دولة العراق» التي كان بعضها في السجون وأرسلتها إلى سورية. لكن من ثمّ تدخّلت روسيا، طبعاً أمريكا ليست بعيدة عن مفاصل هذا التنظيم، مفاصل هذا التنظيم في يدها، وهي تسمح للدول الأخرى أن تلعب به حينما يخدم مصالحها..

ولأنّ أمريكا ضدّ كلّ حراك شعبيّ، سمحت

والآن بعد التدخّل الروسيّ، كان واضحاً أنّ هناك ارتياحاً من قبل إسرائيل، ذلك لأنّها ضمنت أنّ الوضع سيبقى متماسكاً.

وطبعاً، كان واضحاً الميل الأمريكي للانسحاب من الشرق الأوسط، وهذا ما جعل العلاقة الإسرائيليّة الروسيّة تتطوّر بشكل متسارع، وكان «نتنياهو» يسعى لتركيب بديل لهذا التراجع في العلاقة الإسرائيليّة الأمريكيّة، وبالتالي تطوّرت العلاقة وأصبحت روسيا طرفاً، والدولة الصهيونيّة مرتكزاً أساسيًّا في المنطقة.

ولهذا حينما قرّرت التدخّل العسكريّ كانت قد نسّقت مع الدولة الصهوينة، والآن سوف تجري مناورات بحريّة مشتركة بين البحريّة الروسيّة والبحريّة الصهيونيّة، والتي سوف تنطلق من طرطوس، وهذا يعني أنّ إسرائيل الآن في وضع مريح، لأنّها تعتقد بأنّ أيّ حل في سورية سيبعد إيران، وسوف يحاصر «حزب الله» من زوايا معيّنة، ويبقي وضع سورية في شكل مستقرّ نتيجة وجود القوّات الروسيّة.

ما أبعاد الدور الإسرائيلي في سورية منذ بداية الثورة حتّى التدخّل الروسيّ بعد الاتّفاق المعروف بين نتنياهو وبوتين والقبول الأمريكيّ؟ وما محل النظام السوريّ من الإعراب في هذا الاتّفاق رغم تشدّقه بالمقاومة؟

سلامة كيلة: يعني طبعاً التشدّق بالمقاومة هو غطاء لكلّ شخص يريد أن يخطّط مساره ومصالحه، وأصبحت «قضيّة فلسطين» هي الشعار الذي يستغلّ لخدمة مصالح متخلّفة متناقضة؛ الدور الصهيونيّ كان واضحاً أنّه لا يريد سقوط «بشّار الأسد»، وكلّ ما كان يكتب في إسرائيل عن فلسطين المحتلّة وكلّ التصريحات الإسرائيليّة وكلّ ما تسرّب، كان يشير إلى أنّهم مرتاحون لوجود النظام السوريّ، وقالوا «إنّه بدون اتّفاق كان النظام السوريّ يعرف حدودنا الحمراء ويلتزم بها دون أن نقولها أصلاً».

وتبيّن فيما بعد أنّه يحاول التواصل مع الدولة الصهيونيّة لكي يقيم مفاوضات، وقد أقام مفاوضات عام ٢٠٠٧ و٢٠٠٨ في تركيا، اختلت بعد «أسطول الحرّيّة» و الخلاف التركيّ الإسرائيليّ، وحينها أتى «بشّار الأسد» إلى تركيا لكي يقول «لأردوغان» ألا تقطع علاقتك مع إسرائيل وهذا التصريح واضح لبشّار الأسد في هذا الموضوع.

ومن ثمَ عام ٢٠١٠ كما كشف «جون كيري» أنّ « بشّار الأسد» أرسل رسالة له قبل أن يكون وزيراً للخارجيّة الأمريكيّة، لكي يتوسّط له مع الدولة الصهيونيّة للوصول إلى تفاوض، هذا الأمر، كان يجعل الدولة الصهيونيّة معنيّة باستمرار النظام، وهي أيضاً لا تخاف المجموعات الأصوليّة لأنّها تعرف منابعها الأمنيّة؛

وبهذا، هذه المجموعات لن تقوم بأيّة عمليّات ضدّها، على عكس من ذلك، يؤخذ الأصوليّون من «غزّة» لكي يرسلوا إلى سورية، ومن الأرض المحتلّة (٤٨) كي يرسلوا إلى سورية؛ بالتالي، أصبح القلق قائماً فقط أنّه ما هو مصير سورية، تفكّك، فوضى، والخوف من الفوضى.

نرى أنّ قضيّة فلسطين المركزيّة لدى الشعوب العربيّة قد تمّ تجاهلها تماماً مع هذه الصرعات الحاصلة في الشرق الأوسط. هل نقول إنّ للربيع العربيّ وجهاً خفيًّا لوأد القضيّة الفلسطينيّة؟

سلامة كيلة: بالتأكيد لا.

لأنّه عادة الحدث هو الذي يفرض ذاته على الإعلام، وبالتالي يظهر أنّ العالم نسي القضيّة الفلسطينيّة، وأنّ الإعلام يتركّز على الثورات العربيّة والحراك العربيّ. فهذا مظهر شكليّ لا يعبّر حقيقة عن الواقع.

المسألة لا تتعلّق بالتركيز الإعلاميّ، يعني مهما ركّزنا على القضيّة الفلسطينيّة عالميًّا، لن يتغيّر شيء في الواقع، بينما مسار الثورات العربيّة هو الذي سيفرض تغييراً يساعد القضيّة الفلسطينيّة كما أرى، وهذا ما تلمسه الدولة الصهوينيّة وتخاف منه، لأنّ انفجار الثورات الشعبيّة سيؤدّي بالضرورة إلى تغيّرات عميقة في بنية النظم التي تريد تحقيق مطالب الشعوب، وتحقيق هذا المطالب، بالضرورة يفترض الصدام مع الرأسماليّة العالميّة، وبالتالي مع الدولة الصهيونيّة..

وتحقيق هذا المطالب يفترض تحقيق كلّ النمط الاقتصاديّ، بناء اقتصاد حقيقيّ، بناء مجتمع حقيقيّ، كلّ هذه العناصر تجعل هذه النظم الجديدة في صراع وفي تناقض مع الدولة الصهيونيّة ومع الرأسماليّات العالميّة كلّها.

من هذا المنظور، تكون نتائج هذه الثورات في خدمة تغيير الوضع الاستراتيجيّ لكلّ المنطقة العربيّة لغير مصلحة الدولة الصهيونيّة.

ما نظرتك القادمة للأرض السوريّة مع وجود كلّ هذه الأطراف الدوليّة والفصائل والميليشيات؟ هل هنالك تقسيم أم «فدرلة» أم صراع مستدام يقود إلى الأفغنة؟

سلامة كيلة: أنا لا أعتقد أنّ التقسيم قائم، لأنّ التقسيم يفترض توافقاً دوليًّا، وليس من توافق دوليّ على ذلك. روسيا تريد سورية، ولا تريد جزءاً من سورية فقط، وأمريكا تنسحب من سورية، وبالتالي لا تستطيع أن تفرض حتّى شكلاً ما أو تقسيماً.

كانت قد احتلّت العراق ولم تستطع فرض التقسيم رغم الشروخات التي أوجدتها، لذلك وهي بعيدة لا تستطيع فرض التقسيم؛ إضافة إلى رفض تركيّ، ورفض إيرانيّ، وليس فقط تركيّ لهذا التقسيم .

لأنّ كلّ دولة من هاتين الدولتين تريان أنّ تقسيم سورية سيؤدّي إلى تفكّك لديهما. استمرّار الصراع ربّما يبقى لفترة، لكن في النهاية لا تستطيع روسيا قيادة هذا الصراع لأمد طويل، وفي لحظة معيّنة ستقبل بحلّ ما؛ وبالتالي سينتهي.

لكنّ الصراعات المختلفة في داخل سورية ستبقى.

بعض المجموعات المسلّحة ستبقى، بعض الفوضى ستبقى. لأنّ الدولة ضعيفة ستكون في كلّ الأحوال، ولأنّ الصراع سيستمرّ بأشكال مختلفة، ولهذا لن يحدث استقرار كامل إلّا بتغيير جذريّ لكلّ بنية النظام، وهذا مرتبط بتطوّر الصراع بأشكال أخرى مختلفة عن ما حدث في السنوات الخمس الماضية.

حاوره: أحمد بغدادي

أنا الفلسطيني السوري و السوري الفلسطيني في آن واحد .

منحت السويد جائزتها لحقوق الإنسان لـ « عبد الله الخطيب » .
وهو شاب في السابعة والعشرين، من مخيم اليرموك، كان يدرس علم الاجتماع في جامعة دمشق، أما الآن فهو يحصي الذين ماتوا جوعاً والذين سقطوا برصاص القناصة في مخيم اليرموك ويوثّق ما يجري في المخيم.
لم يستطع «عبد الله» السفر الى السويد لاستلام جائزته، استلمها عنه صديقه، لكنه أرسل رسالة قرأت أثناء استلام الجائزة، ولأهمية هذه الرسالة وعمق ما استعرضه عبدالله فيها تقوم «كلنا سوريون» بنشر هذه الرسالة كوثيقة حية لشاب عاش مرحلة حصار مخيم اليرموك

سيداتي سادتي:

لقد مرّ وقتٍ طويل على آخر مرّة واجهت فيها جمهوراً أمامي وجهاً لوجه، هذا لحسن الحظ يجعل الكلام أسهل بالنسبة لي ولكنه في الوقت نفسه ودون أن أدري لماذا، يجعلني في كل مرة أشعر بنفسي كعجوز يكتب رسالته الأخيرة في هذه الحياة.

على كلٍّ أكتب لكم أحبتي اسمحوا لي بأن أناديكم بأحبتي دون سابق معرفة، فالحصار يحول المحاصر لشخص هش عاجز عن الكلام إلّا مع من يحبهم أكتب لكم من جنوب العاصمة دمشق المحاصر وكلّي أمل أن تصلكم مشاعري الحقيقة رغم أنف هذا الحصار الذي منعني أن أكون معكم هذا اليوم.

السيدة وزيرة الثقافة «هذا البلد لم يخض حرباً منذ مئتي سنة» هذه الجملة وجدتها مكتوبةً في أغلب النصوص التاريخية التي قرأتها عن بلدكم قبل أن أبدأ بكتابة خطابي هذا، لم أصدّق هذه الجملة في البداية، كيف يكون شكل هذه البلاد التي لا تخوض الحروب! بداية حاولت جاهداً البحث عن المشترك بيننا كي أتحدث به، لكنّ التاريخ بلسانه الساخر دفعني باتجاهٍ آخر..

سيداتي سادتي

: في البلاد التي لم تخض حرباً منذ مئتي سنة، سأحكي لكم قصتي قبل سبع وعشرين عاماً تماماً ولدت في مخيم للاجئينَ الفلسطينيين يسمى مخيم اليرموك، يقع على هذا الكوكب هو ذات الكوكب الذي تعيشون فيه، ورغم أنّي من لحظة ولادتي سميّت لاجئاً، لكنّ والداي أيضاً لم يبخلا علي باسم كما كل الأطفال، فسميت عبدالله و دخلتُ المدرسة سعيداً كما كلّ الأطفال رغم أنني كنت مجبراً في هذه المدرسة التي تحمل علماً أزرقاً على تناول زيت السمك الذي كنت أكره طعمه وأظنكم لم تجبروا على تناوله في مدارسكم، ولم يمنعني غياب الملاعب في المخيم أن تكون كرة القدم من هوايتي، وأدّعي أنني أعرف السباحة جيداً مثلكم مع أن زياراتي للبحر تعدّ على أصابع الكف الواحدة، ورغم أنني لا أملك الحق بامتلاك جواز سفر، لكنّي تعرفت على هذا العالم ليس لأني رأيته بعيني مثلكم، بل لأني كنت أحب الاستماع لحكايا المسافرين و من ثم أحلق في أحلامي حول عالمكم.

كان لي حبيبة مثل كل المراهقين، صحيح أنني كنت أبتعد عن طريق أبيها الغاضب دوماً، لكنّ ابتسامة أمها حين تراني كانت تعطيني الاحساس بالأمان، دخلت الجامعة لأدرس علم الاجتماع مدفوعاً برغبتي لفهم هذا العالم القاسي المليء بالحروب تلك التي لم تعرفونها من مئتي سنة وربما هي الصدفة فقط من جعلتني أمتلك الدرجات الكافية لدراسة هذا الاختصاص.

وللأمانة أجد نفسي هنا مضطراً لأخبركم بأنّنا لسنا متشابهين تماماً، فأنا لا ألعب الغولف، ولم أر المترو في حياتي وحتّى الآن لم أصدق بأنّ السيارات أصبحت تسير بواسطة الكهرباء، ولا أتخيل كيف ولماذا تسير القطارات في باطن الأرض، لم أمتلك يوماً بطاقة مصرفية، ولا بطاقة سنوية لدخول السينما. ويحتّم عليّ الواجب أيضاً أن أخبركم بأنني لم أتخرج من الجامعة، ليس لأنني كنت مهملاً في الدراسة، بل لأنّ حرباً طارئةً استوطنت هذا المكان.

سيداتي سادتي

سأخبركم شيئاً عن الحرب التي لم تعرفونها منذ مئتي سنة، كنت أمشي في شوارع المخيم صباحاً في يوم من أيام الحصار الطويلة، شاهدت طفلاً لا يتجاوز عمره التاسعة، من الغريب أن ترى الأطفال يمشون في الشوارع وحدهم في هذه الساعة من الصباح الباكر، كان منحنياً على الأرض يبحث عن شيء ما، اقتربت منه أكثر وحين وصلت إليه تماماً قبض راحة يده التي لا يتجاوز حجمها حبة جوز على ما بداخلها، سألته ماذا تخفي لم يجبني فوراً، في الحقيقة لم يجبني أبداً، اكتفى فقط بفتح راحة يده، ورغم دموعي التي انهمرت وقتها لكني استطعت تمييز تسعة حبات من الرز هي التي استطاع جمعها بعد تعب. نعم أيّها السادة هذا الطفل كان يجمع طعامه، كان وجبات الطعام في المخيم المحاصر تحصى بعدد حبات الرز.

هل تعرفون ما اسم هذا الطفل؟ بالمناسبة لا يهم، حتّى أنا لا أعرف، في الحصار خسرنا أسماءنا التي اكتسبناها في الطفولة كما أخبرتكم قبلاً، وأصبح لنا جميعاً اسم واحد «كائن تحت الحصار»

سيادتي سادتي

لم يخطر يوماً ببال أحدٍ من مجموع السوريين الذين عشت بينهم أنهم سيصبحون مشهورين على مستوى الكوكب، كما هم الآن، كانوا يعيشون حياتهم ببساطة كما أغلب الشعوب، يعملون في حقولهم ومصانعهم، يذهبون إلى مدارسهم، يتزوجون ينجبون للحياة أطفالاً ويحمّلونهم آمالهم كما كل البشر، لكنها كانت لحظة فاصلة في حياة السوريين حين شعروا بحرارة الحرية تعصف بمنطقتهم، كان الجميع في سرهم يقولون نحن أيضا نستحقها، لم يكن أحد منهم يتخيل أنّ القرن الواحد والعشرين سيحمل لهم هذا الجحيم الذي يعيشون فيه، طالب السوريون بحريتهم وأيّدتهم في هذا كل شعوب الأرض تقريباً وكل الحكومات وكل الإعلام، كلهم كانوا ينادوا بحرية السوريين ولكن حين جاءت لحظة الحقيقة تخلى عنهم الجميع.

ولأن الفلسطيني يحمل في أعماقه ذاكرةً لم تشف بعد من آلام الموت والفقد والتهجير من أرضه، كان من المستحيل عليه الوقوف بعيداً عن الكارثة التي حلّت بالشعب الذي استضافه حين طرد من أرضه إثر قيام دولة اسرائيل، ولأن السوريين لم يطلبوا أكثر من الحرية كان الواجب الأخلاقي يفرض على شعب حُرم أيضاً من الحرية أن يساند السوريين في رغبتهم بالحرية، فكنت أنا الفلسطيني السوري والسوري الفلسطيني في آن واحد. لكنّ أحداً لم يتوقع حجم الكارثة، كانت الجريمة أكبر من قدرة البشرية علي الاستيعاب، مدنٌ بأكملها دمّرت، أطفال قتلوا في أرحام أمهاتهم ونساء اغتصبوا حتّى الموت، ورجال قتلوا تحت التعذيب.

سيادتي سادتي

هل صادف أن كان لكم صديق ومات تحت التعذيب؟ هل جربتم هذا الشعور؟ أنا جربته كان لي صديق اسمه حسان مات بعد التعذيب، هل تعرفونه؟ حسان كان يعمل بالكوميديا، كان قادراً حتّى على إضحاك الشياطين لكنّه لم يستطع إضحاك قاتله لحظة قتله، وخالد صديقي أيضاً مات بالتعذيب وغيرهم كثيرون.

مئات الألاف من المدنيين سحقوا تحت الأنقاض، تحولت المدارس لمراكز اعتقال والمستشفيات لثكنات عسكرية والحدائق منازل للنازحين المشردين الهائمين على وجوههم، أمّا مخيم اليرموك الذي أخبرتكم عنه، ذلك المكان الذي ولدت فيه، الذي كان يضج بالحياة، فقد تحول لمركز استقبال للنازحين. في البداية عشرات الألاف من النازحين الهاربين من الحرب في أحياء العاصمة دمشق توجهوا نحو المخيم، فتحت المدارس والمساجد لاستقبال النازحين، وفي لحظة مفاجئة تغير خطّ الحياة الذي كنت أرسمه لنفسي، لم أكن وحدي، الكثيرون أيضاً هجروا أحلامهم ، لقد تخلوا عن كل شيء، واحترفوا صناعة الحياة بطريقتهم المذهلة، لقد كانوا يتصرفون كالأنبياء.

ولأنّ الطائرات من كلّ جنس ولون استولت على حناجر الأطفال، أقاموا لهم المدارس والملاعب ولأنّ نيران الصواريخ تعرف خرائط أشجارنا وبيوتنا المفتوحة كقصيدة نثر، أطفؤوها بأكفّهم العارية.. ولأنّ الشهيد وحده من يستطيع أن يكون شاهداً، سقطوا يحملون آلات تصويرهم بأيديهم ولأن الطغاة استسهلوا تجويع الأطفال لكسر الإرادة الكبار، حولوا مزابلهم لبساتين تكسر إرادة الحصار.

كانوا يدرسون الطب والهندسة والآداب ولكنهم فجأة تحولوا مسعفين وإعلاميين وعمال نظافة وفلاحين ومعلمين للأطفال، لكن الموت لم يمهلهم كثيراً، كان متربصاً بهم عند كل زاوية وأمام كل باب، لقد سقط معظمهم شهداء .. وكلما خطف الموت أحدهم تولى غيره المهمة، لقد حمل المتبقون مكنسة بيد وكاميرا في اليد الأخرى، حملوا كيس طحين وكتاب لم يفكروا أن يكونوا أبطالاً، لكنهم لم يملكوا خيار التخلي عمن بقي حياً من الأهالي هناك، علمتني الحرب الكثير من الخبرات السيئة الكثير لكنها علمتني في الوقت ذاته معنى أن نعمل معا، أن نصحو جميعا في الصباح ونتوجه نحو الأرض لنزرعها كي نأكل، وأن نصدح بالحقيقة بأعلى صوتنا حتى ولو كانت طلقة في رأس نهاية للرحلة، كما جرى لفراس.

هل تعرفون فراس؟ كانت الحياة تنبع من بين أصابعه، فراس الذي بقي في بيته وحيداً لأنه لا يستطيع النوم قبل أن يقرأ قصيدة شعر، فراس الذي درس علم النفس لكنّه فضّل العمل بإطفاء النيران قبل أن تلتهم بيوت الفقراء، فراس كان يطفئ النيران بكفي يديه الخشنتين حين لا يجد الى الماء سبيلا.. فراس يا سادتي هو الفلاح الذي كان يغني للأرض قبل رمي البذور فيها، باغته الموت بطلقة في الرأس.

الحياة التي لا يكون الإنسان فيها صوتاً للحق وللضعفاء ليست حياة هي أشبه بحلبة مصارعة رومانية يسقط فيها الضعيف ولأننا ضعفاء جميعاً من لحظة الولادة قررنا أن نرفض الهروب ونستمر بالمقاومة، كنا ندافع عن حق أطفالنا في غد أفضل فقط غير آبهين بأيّ معنى للبطولة.

في فترات الحصار الشديدة التي مرت على مخيم اليرموك والمنطقة الجنوبية، لم يكن يمرّ يومٌ دون سقوط خمس من ضحايا الجوع، كانت الرجال تتساقط على الأرض كأوراق الشجر في فصل الخريف من شدة الهزال، في أحد تلك الأيام، أوقفتنا امرأة عجوز وسألتني: متى ستدخل المساعدات الإنسانية إلى المخيم؟ أجبتها بثقة، قريباً جداً! كنت أعرف أنني أكذب والمرأة العجوز أيضاً تدرك أنني كاذب، كلانا كان يحتاج الأمل لنعيش عليه يوماً آخر، هل تعلمون ماذا يعني أن يعيش الإنسان على أمل الحصول على حفنة رز أو قمح ليس من أجله هو لكن من أجل طفله الرضيع أو أمه المسنّة.

كان التحديّ الأصعب لديّ أن أقول للناس حول العالم أنّ هناك بشر مثلكم يموتون من الجوع، كنت أستغرب هل يستطيع أي إنسانٍ على هذه الكرة الأرضية النوم إذا سمع أنّ هناك أطفالا تموت من الجوع، عملنا المهم يا سادتي كان أن نوثق هذا، أن نسجل لأبنائنا وأبنائكم أن بشراً يموتون من الجوع في القرن الواحد والعشرين، هناك أدميون يموتون من الجوع على مرأى مسمع العالم أجمع بأشخاصه ومنظماته..

أصدقائي الطلبة الحاضرين معنا لا تصدقوا كل ما تنشره وسائل الميديا لكم، هناك ميلٌ خبيثٌ لدى سادة هذا العالم الاستهلاكي لإعطائكم صورة افتراضية أكثر جمالا عن العالم حولكم، لكنّها بالتأكيد أقل حقيقة. يميل العالم المتحضّر لإعطاء المسكنات للضمير الانساني، ليس بهدف التقليل من بشاعة المشهد خوفاً على مشاعر المواطنين، بل لأن هذا يعطي صانعي السياسة حول العالم حرية أكبر لتحقيق مصالح يقال أنها تهدف لخدمة البشرية لكنها في الحقيقة لا تفعل أكثر من تكديس الثروات للأقوياء على حساب الضعفاء في هذا العالم الكبير، جربوا أن تشاهدوا الحقيقة بأم أعينكم، هناك شعوب تعاني الظلم والقهر وتنعدم فيها حقوق الإنسان بالمطلق بما فيها حقهم الأساسي بالحياة، هناك بشر يقتلون فقط لأنهم ينتمون لثقافات أخرى أو لأن لون جلدهم لا يشبه لون بقية البشر.

هنا في بلادي أطفال تفاجؤوا عندما شاهدوا الشوكولا لأول مرة في عمر الخمس سنوات، بعد أن قيل لهم أنّها موجودة فقط في الجنة.. سيكون شيئاً رائعاً في حياتكم أن تقولوا لأنفسكم عندما تكبرون، لم نكن حياديين في هذا العالم، نحن أيضاً بشر وسنضع بصمتنا الشخصية في هذا العالم.

أصدقائي الطلبة

الفساد ينتشر في هذا العالم كالعفن، فلنقاومه بأقصى ما نستطيع، فلنقاوم جميعاً، «المقاومة هي الحب» هذه العبارة قيل لي أنّها مكتوبة بأحرف ضوئية على أحد مداخل الجزر في عاصمتكم ستوكهولم، لا أدري ماذا قصد من كتبها، لكنني أعتقد أنها تلخص ما أودّ قوله لنقاوم الظلم في هذا العالم لأن المقاومة هي حب الانسان لكل ما هو جميل و استعداده للدفاع عن معنى الحياة في هذا العالم المتوحش، ربما لن نستطيع ايقاف المذبحة لكن لنحاول معاً بأقصى ما نستطيع أن لا نعتاد الموت، أن لا تصبح أخبار القتل اليومية خبراً عاديا في نشرات الأخبار. شاعر فلسطيني قال ذات مرة «على هذه الأرض ما يستحق الحياة» نعم هناك الكثير على هذه الأرض يستحق الحياة لكنّه بحاجةٍ للدفاع عنه، لنحاول هذا سوية،

سألني ذات يومٍ صحفي في جريدة الغارديان:

- ماذا تفعل بالمخيم حتى الآن .
- أزرع الأمل على شكل خضروات فيما تبقى من مساحات محدودة صالحة للزراعة، أدرب الأطفال على التعلق بالحياة من خلال اللعب، أوثق المجزرة التي أنا جزء منها. أكتب تاريخنا كي لا يُنسى ونموت حتى بدون عزاء، أدرس الطلبة مادة الفلسفة، أحدثهم عن كانط ومدرسته، أستعين به دون وعي كي أقول لهم أنّ الموت أهون من غياب العدالة، أوثق الحقيقة كي تبقى راسخة في عقول أبنائنا الذين سيولدون حتماً وهم أحرار.

- وماذا تكتب؟
- قواعد للحصار كي يستفيد منها المحاصر القادم في هذا العالم وكي لا تضيع التجربة سدى، سأجمعها في كتاب وأسميه قواعد الحصار الأربعين ليكون وجه أخر للبشر

- هل تعتقد بأن حصار أخر سيكون في العالم؟
- ردّ فعل العالم على هذا الحصار تجعلني أعتقد بأنّ العالم يمضي نحو الهاوية

- ماذا تقرأ؟
-وصايا أصدقائي ورسائلهم كيلا أموت مهزوماً

- ماذا تحلم لنفسك؟
رغم كل المحاولات الفاشلة لإخراجي من هنا لكني لازلت أحلم بالحياة، بأن أمتلك شهادة عليا في علم الاجتماع كي لا أضيع ظن من وثقوا بي، أحلم بكتابة سيرة جميع الشهداء، أفكر كثيراً بالموت، لا أتمناه، وبعكس ما أقول أحياناً، أنا أخاف الموت وأعرف أنني أنتظره.

أصدقائي السوريين والفلسطينيين الحاضرين معنا أهلي وعائلتي الكبيرة المتواجدة في مملكة السويد، نساء ورجالاً كباراً في السن وأطفال، باسمكم جميعا أدعو الله أن تنتهي الحرب في بلداننا وأن تعودوا جميعا لبيوتكم وأهلكم وأصدقائكم، نحن نشتاقكم هنا، ننتظر عودتكم لحظة بلحظة، سيكون هناك من جديد متسع لقوس قزح ليملأ سماءنا بدلاً من دخان الطائرات، سيجد الفلاح وقتاً كافياً ليسقي حقله ويلهو مع ماشيته بدلا من حمل السلاح، وستعود سيدة المنزل لتقليم ورود حديقتها بدلاً من البكاء على أطلال بيتها الذي بنته قطعة قطعة، أملي كبير بأن تعود مدارسنا التي تحولت لسجون كبيرة مملوءةً بالتلاميذ وأن ينعم كل المعتقلين بالحرية.

لازلت أحلم بأن اسمع صوت أمي يدعوني لفنجان قهوة على شرفة منزلنا دون الخوف من مرور طائرة مجهولة الهوية أو سقوط قذيفة عمياء، لنحلم معاً بهذا اليوم الذي نستطيع فيه دعوة أصدقائنا السويديين الذين أغاثونا واستقبلونا لنشكرهم على حسن ضيافة لاجئينا.

لا زال أملي كبيرا بانتصار ارادة الحياة على ارادة الموت والقتل بانتصار الثورة السورية ثورة الحرية والكرامة وأن تصبح سوريا دولة مدنية حقيقية مبنية على أساس الديمقراطية لكل مواطنيها، أحلم بذلك اليوم الذي سيعود فيه مخيم اليرموك مكاناً لبناء الابداع والحب كما كان ويعود أطفاله للرسم على جدران شوارعهم المحطمة.

أملي كبير أيضاً بالسلام لذلك المكان الذي جاء منه أبي «فلسطين» و أن ينال الفلسطينون حريتهم وأن يتوقفوا عن كونهم مشردين في هذا العالم بلا جوازات سفر محرومين من حقوقهم الأساسية وأن يتوقفوا عن كونهم لاجئين من لحظة ولادتهم معرضين للقتل بلا حساب وأن تنتهي عذاباتهم الممتدة منذ أكثر من سبعين سنة.

أما على صعيدي الشخص فأنا أحلم بذلك اليوم الذي أستطيع فيه لقاء من بقي من الحياة من الأصدقاء معتقلين كانوا أم مهجرين، سنلبس ثياباً جديدة كأطفال ونمضي بهدوء لنزرع الورد حول قبور الغائبين.

سيادتي سادتي

هذه الأرض تتسع لنا كلنا فقط عندما يقرر الجميع أن يصرخوا بصوت واحد في وجه القتلة -جميع القتلة-: فلتوقفوا القتل. شكرا لكم حضوركم وشكراً لكل من استمع وانتبه أو تثاءب.. شكرا لكم جميعاً، في الأخير الشكر لسليم الحاضر نيابة عني والذي يتكلم بلساني في كلّ مكان، شكرا لمعلمي أحمد عمرو الذي كتب جلّ ما في الخطاب.

عبد الله الخطيب

اللاجئ في دوّامة اللغة والأوراق

يشتكي اللاجئون من كثرة الأوراق في علاقتهم مع الحكومة والدوائر الألمانيّة، في مختلف المعاملات، ومن الاعتماد على البريد الورقيّ في كلّ تعامل حتّى مع المدرسة، أو أيّة جهة خاصّة. ويبرز عامل صعوبة اللغة هنا أيضاً، فمعظم اللاجئين السوريّين، لا يعرفون من اللغة الألمانيّة شيئاً، ولا من الإنكليزيّة ما يكفي لتسيير أمورهم؛ ما يعرّضهم للعرقلة أو سور الفهم، وربّما الاستغلال من قبل البعض.

لولا العائلة الألمانيّة

أبو حسن الحميدي (من دير الزور، ٣٣ عاماً) حصل على الإقامة هو وعائلته صيف هذا العام، قال لكلّنا سوريّون: «في مقابلة (الجوب سنتر) طلبت مترجم فتأخّر موعد المقابلة نحو ٤٠ يوماً، وكانت المترجمة مغربيّة لم أفهم عليها ولم افهم عليّ.»

وأضاف أبو حسن بأنّه تلقّى إنذاراً بضرورة ذهاب أولاده إلى المدرسة (أربعة أولاد: ٥،٨،١٠،١٢) ولم يعرف ماذا يفعل، فقد تنصّل موظّفو الكامب من العمليّة، وقالوا بأن لا دخل لهم في الأمور التي تجري خارج الكامب.

بحث أبو حسن عن مترجم، ولم يجد إلّا شاباً سوريًّا يتحدّث الإنكليزيّة ولكنّه يعرف عائلة ألمانيّة، تعرّ ف إليها بالصدفة، فقاموا جميعاً بأخذ أولاد أبو حسن إلى عدّة مدارس حتّى تمّ تسجيلهم. وأكّد أبو حسن أنّه: لولا العائلة الألمانيّة والشابّ السوريّ الذي ترجم لهم المشكلة لما استطعت أن أفعل شيء، وربّما «كبر الموضوع وصار فيها شرطة، بس الله لطف».

تقدّم الحكومة الألمانيّة عبر مؤسّساتها، دورات لتعليم اللغة للاجئن الذين يحصلون على الإقامة تمهيداً لإدماجهم وإدخالهم في سوق العمل.

كذلك تقوم منظّمات المجتمع المدنيّ وجهات أخرى، بافتتاح دورات مشابهة، وإن كانت الأخيرة لا تمنح شهادات في مدارسها.

ولكنّها تسمح للجميع بالاستفادة منها كمعلومة، بغض النظر عن حصوله على الإقامة أم لا، ما يسرّع في عمليّة تحصيل اللغة في وقت مبكّر، مثل منظّمتي «كاريتاس» و «مالتيزا» اللتان تستقبلان اللاجئين منذ وصولهم، وتستمرّان في تقديم المعونات لهم.

طرشان في الزفّة

يتمّ منح شهادات اللغة على مستويات، يقدّم منها «جوب سنتر» نحو ٦٠٠ ساعة مجّانا ولمرّة واحدة، فهل تكفي هذه الكميّة؟ وما هي نوعيّتها؟

منذر (من ريف دمشق ٢٥عاماً) يقول:

سجّلت في إحدى المدارس التي قدّمها لي «جوب سنتر» بعد محاولات عديدة، فلا توجد أماكن في أغلب المدارس لمدّة أشهر، وبعد انتظار خمسة أشهر للحصول على الإقامة أصلاً. وأضاف منذر: «ما استفدت من هذه الدورة، كنت متل الأطرش بالزفّة».

أمّا لينا (من حلب متزوّجة ٢٨ عاماً، ولديها طفلة مع زوجهايقيمان في تركيا) فقد تجوّلت بين العديد من المدارس، وكانت في كلّ منها تجد مشكلة، بدءاً من الزحام وصولاً إلى تضارب أوقات الدوام مع الأعمال الورقيّة العديدة، وخاصّة (لمّ الشمل) فلا تقدّم الحكومة أيّة مساعدة في هذا الاتّجاه، بل تقوم شركات مثل «إيداتا» في تركيا مثلاً، بتنظيم وتقديم الأوراق الثبوتيّة العديدة والمطلوبة من قبل السفارة الألمانيّة، وتحجز وتساهم في تنظيم هذه المعاملة الطويلة.

تقول لينا: تشعر بأنّ الحكومة لا تريدك أن تقوم بلمّ الشمل، مع أنّه حقّك القانونيّ، وثبت أخيراً ذلك، فقد أصبحوا يمنحون السوريّين سنة حتّى لا يتمكّنوا من إجراء لمّ الشمل.

وتتحدّث لينا عن تجربتها في تعلّم اللغة فتقول :حاولت منذ وصولي إلى ألمانيا التسجيل في أيّ دورة تقام في «الكامب» أو «الهايم» والتي تقيمها المنظمات، لكنّ التنقّل من مكان لآخر كان يعيد الأمور إلى أوّلها، ونعيد الدروس الأولى عدّة مرّات, ثمّ وبعد الحصول على الإقامة، سجّلت في دورة اكتشفت أنّها مليئة بالسوريّين الذين لا يريدون التعلّم، فقط يحضرون لأنّهم مجبرون، وهم لا يفكّرون إلّا فيما يتقاضونه من مال كلّ شهر، ويبدو أنّهم يريدون البقاء على هذه الحال.

تفاسير «السوتسيال»

تشتكيّ لينا من الروتين وكثرة المعاملات الورقيّة فتقول: خلال أشهر صار عندي ملفّ طويل عريض من الأوراق، أكثر ما كان لديّ في كل حياتي في سورية! وتضيف لينا: الورقة الواحدة تستلمها باليد ثمّ تأتيك نسخة منها بالبريد، وأحياناً تتكرّر، ولا تدري لماذا. لكن الأفظع – كما تقول لينا – هو أنّك لا تفهم إلّا القليل ممّا في هذه الأوراق، وحدث معي أن ترجم لي موظفو «السوتسيال» رسالة من المحكمة كل بشكل مختلف؛ أي أنّني لم أفهم ما مضمون الرسالة، قال أحدهم هي تبليغ للذهاب إلى المحكمة، وقال آخر هي ورقة روتينيّة للتنبيه في حال التأخّر عن الذهاب أنّ هنالك غرامة!. بين اللغة الجديدة والأوراق الرسميّة الكثيرة وغير المفهومة، يقع اللاجئ السوريّ في دوّامة يوميّة تبدو بلا نهاية، كما قضيّته الأساسيّة بيد هذا العالم كلّه.

برلين/ بشّار فستق

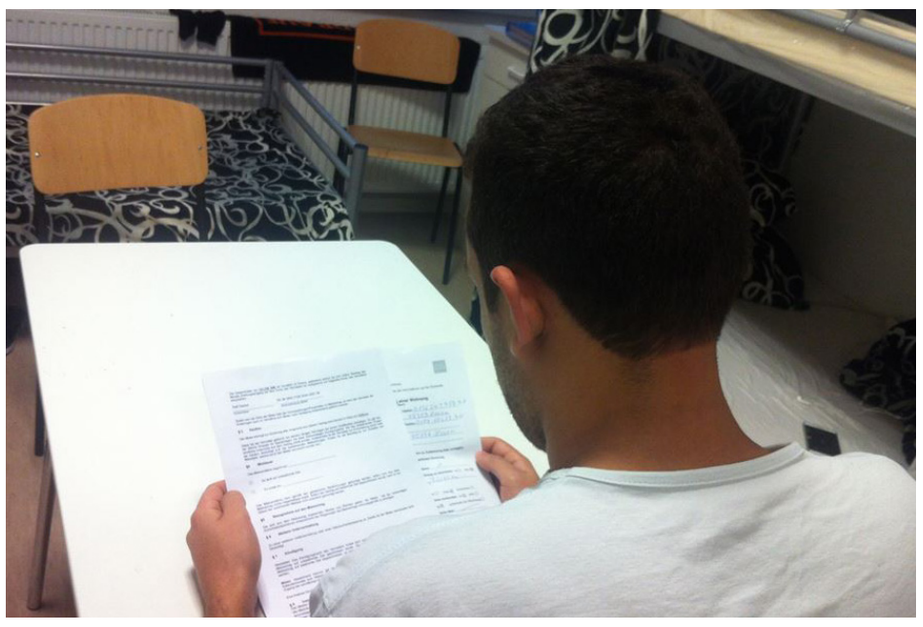

الطاقة الشمسيّة في ريف حمص الشماليّ... الحلّ الأمثل

(مشروع لتوليد الكهرباء في ظلّ انقطاعها المستمرّ والارتفاع الحادّ في أسعار المحروقات)

بعد أن قامت قوّات النظام بإطباق الحصار على ريف حمص الشماليّ منذ أكثر من خمس سنوات، وانقطاع التيّار الكهربائيّ بشكل كامل، ومع ضرورة استخدامه في استخراج المياه وغيرها من احتياجات ضروريّة لا يُمكن الاستغناء عنها، خاصّة في فصل الصيف، قام بعض الأهالي الذين لديهم القدرة على شراء مولّدات كهربائيّة (محوّلات كهربائيّة) كبيرة تعمل على الديزل، و قادرة على سدّ حاجة حيّين بأكملهما من الكهرباء، وذلك مقابل مبلغ مالي أسبوعيّ.

لكلّ عمله والنظام يقصف

وقد تمّ تشكيل فريق عمل، يعمل على هذه «المولّدات» في مجالين، الأوّل يعمل على تزويدها بالديزل ومراقبتها أثناء عملها وصيانتها أثناء تعرّضها للأعطال، والثاني مسؤول عن الذهاب للمنازل وقياس «الأمبيرات» في آخر كلّ أسبوع، وجمع المبالغ المستحقّة، باعتبار أنّ كلّ منزل يستهلك «أمبيرات» مختلفة عن الآخر بحسب الطلب.

«علي» أحد العاملين من فريق الصيانة والمراقبة، وهو أحد طلّاب كليّة الأدب العربيّ، اضطرّ لترك دراسته الجامعيّة بسبب الحصار على الريف، والخطورة التي أصبحت تواجهه أثناء ذهابه إلى جامعته، ولتأمين قوته اليوميّ هو وعائلته، ولجأ إلى العمل في مجال المحوّلات الكهربائية، وفي حديث له حول كيفيّة عمل هذه «المولّدات»

قال لـ «كلّنا سوريّون»: نقوم بتعبئة المولّدات بالديزل وتفقّدها بشكل كامل، ثمّ يبدأ العمل فنجلس لمدّة ساعتين على مراقبتها لتجنّب الأعطال، إذ أنّ أيّ عطل يطرأ على المولّدات لا تقلّ تكلفته عن مئتي ألف ليرة.

وأضاف «علي» :

نضطرّ إلى إطفاء المولّدات أثناء القصف بالطيران الحربيّ والمروحي، وطيران الاستطلاع تجنّبا للقصف على أماكن الإضاءة، وفي هذه الأثناء يقوم الفريق الآخر بالتجوّل على المنازل لاستلام المبالغ الماليّة، كما أشار إلى أنّ سعر الأمبير الواحد في الأسبوع يبلغ سبعمئة ليرة، وغالبيّة الأهالي لا يستطيعون دفع المبالغ في أوّل كلّ أسبوع، والعامل الواحد بهذا المجال يتقاضى أجوراً أسبوعيّة تبلغ أكبرها ألف وخمسمئة ليرة .

ألواح الطاقة الشمسيّة لتوليد الكهرباء

ومع اشتداد الحصار الخانق على ريف حمص الشماليّ، والارتفاع الكبير في أسعار المحروقات، إذ أصبح سعر اللتر الواحد من الديزل ألف ومئتا ليرة ، أجبر الناس على شراء ألواح الطاقة الشمسيّة، والتي تعتبر الحلّ الأمثل، الذي أثبت جدارته في الآونة الأخيرة، ويقوم الأهالي من الذين لديهم القدرة على شراء «الألواح الشمسيّة»، بشراء بطاريّات الأسيد ورافعات الجهد اللازمة لها ليولّدوا منها الكهرباء التي تسدّ حاجاتهم على مدار اليوم.

من الجدير بالذكر، أنّ هذه غالبيّة الأهالي أصبحوا يعتمدون على هذه الألواح بشكل مباشر، لاستخراج المياه من الآبار، وإنارة المنازل بشكل كامل، وتشغيل الأدوات الكهربائيّة المنزليّة كالثلّاجات والغسّالات وغيرها.

«أبو العبد» يعمل في التجارة بمجال الألواح الشمسيّة قال: لـ «كلّنا سوريّون» إنّ سعر اللوح الواحد يبلغ مئة وخمسة وعشرون دولاراً، ويحتاج أيضاً إلى بطارية ورافع جهد، فتصبح تكون التكلفة الإجماليّة نحو مئة وخمسون دولاراً،

كما أضاف أنّ: اللوح الواحد، غير قادر على تشغيل محرّكات توليد المياه والبرّادات، لأنّ قدرته سبعة أمبيرات فقط، وهذه العمليّة تحتاج لعشرة ألواح، ممّا يجعلها مبالغ كبيرة تصل تكلفتها إلى مابين (١٥٠٠ إلى٢٠٠٠) دولاراً، و هذا مبلغ لا تستطيع تأمينه الغالبيّة من الأهالي، إلّا أنّها باتت الوسيلة الأفضل لتوليد الطاقة الكهربائيّة على مدار اليوم، و بعض الأهالي يشترون لوحاً واحد، والبعض لوحان، وآخر عشر ألواح، كلٌ حسب قدرته الماديّة.

أمل بمشروع مركزيّ

أصبح الأهالي يعتمدون على الألواح الشمسيّة في حياتهم اليوميّة بشكل مباشر، كونها تساعدهم على قضاء حوائجهم من الكهرباء، وأهمّها إخراج المياه من الآبار وتشغيل البرّادات والمراوح الكهربائيّة في الصيف الحارّ، ممّا يخفّف شيئاً ما، من عبء الحصار الخانق.

يأمل الأهالي أن تقوم جهة ما من الجهات الخدميّة التابعة لمؤسّسات المعارضة كالحكومة المؤقّتة أوالمجالس المحلّيّة أومجلس المحافظة، بتبنّي مشروع يعمل على نطاق أوسع لتوليد الطاقة الكهربيّة من خلال ألواح الطاقة الشمسيّة، وتصلح المساحات الجغرافيّة الواسعة و الممتدّة لريف حمص الشماليّ لإنشاء مشروع مركزيّ ملحق بمحطّة توزيع تتكفّل بتأمين الطاقة لكلّ أهالي المنطقة، وهذا المشروع غير مكلف، إذا ما تمّ قياسه على أسعار المحروقات، وما سيوفّره مستقبلاً للأهالي وأراضيهم الزراعيّة أيضاً من استطاعة وقدرة على الإنتاج والصمود.

إعداد: محمّد طه

مأساة بلدتي الشيوخ وصرّين بين «داعش» والوحدات الكرديّة

الشيوخ وصرّين، الموقع والأهمّيّة

تقع ناحية الشيوخ على بعد نحو ١٣٥ كم شرق مدينة حلب، يحاذيها من الغرب نهر الفرات، وتنقسم الناحية إلى قسمين: شيوخ فوقاني وشيوخ تحتاني؛ ذلك نسبة إلى مجرى نهر الفرات، ويعمل غالبيّة سكّانها البالغين نحو ٧٥ ألف نسمة بالزراعة وتربية الأبقار وبيع الحليب لمدينة حلب، كما سكّان بلدة صرّين المجاورة للشيوخ، والبالغ عدد سكّانها أكثر من ٦٠ ألف نسمة، والتي تقع على طريق حيويّ بين محافظة حلب ومدينة الرقّة شرق حلب، وتبعد نحو ٤٠ كم جنوبيّ مدينة عين العرب.

تعتبر صرّين المدينة، مركزاً للقرى الجنوبيّة، الممتدّة حتى سدّ تشرين كمدخل إلى مدينة منبج، وحتى الحدود الإداريّة لمدينة الرقّة، إضافة إلى أنّها تحاذي من الغرب نهر الفرات بطول ستين كيلومتراً من حدود بلدة القبّة وصولاً إلى السدّ؛ ومن هنا تأتي أهمّيّتها، إذ على بعد ١٢كم منها يقع جسر سدّ تشرين، الذي يعتبر المنفذ الوحيد للوصول إلى منبج وقراها ومناطق ريف حلب الشماليّ/ الغربيّ.

بالإضافة إلى ما تمثّله من أهمّيّة كلّ من بلدات الشيوخ وصرين والقرى المحيطة بها، بتوفير إطلالة مباشرة لمدينة عين العرب على نهر الفرات، فإنّه للمكاسب الاقتصاديّة أيضا دورها الهامّ بالنسبة للوحدات الكرديّة و «داعش»، إذ تضمّ المنطقة صوامع القمح التي تقع بين جسر قره قوزاك وصرّين وطريق عين العرب، بالإضافة إلى السيطرة على مقدّرات سدّ تشرين وموقعه الهامّ، والذي يبعد ٢٦ كيلومتراً عن مدينة منبج ونحو ٥٨ كيلومتراً عن مدينة الباب، والسيطرة عليه تقطع طريق الفرات بين الرقّة وحلب، ولا يبقى إلّا طريق مسكنة جنوب بحيرة السدّ (الأسد)، وهذا أيضاً يعني التحكّم بقدر كبير من الطاقة الكهربائيّة التي تغذّي ريف حلب الشرقيّ، والاستفادة من نحو ملياري متر مكعب من المياه المخزّنة في البحيرة الصناعيّة التي أنشئت على الفرات، ومن هنا جاءت أهمّيّة السيطرة على هذه المناطق بالنسبة لـ «داعش» والذي اتّخذ منها مركز انطلاق للهجوم على المناطق المجاورة.

التسلسل التاريخيّ للأحداث في المنطقة

شاركت عدد من بلدات الريف الشرقيّ لمدينة حلب في المظاهرات السلميّة التي خرجت ضدّ النظام، ومنها بلدتي الشيوخ وصرّين، وفي شهر تمّوز من عام ٢٠١٢، دخلت المنطقة قوّات الجيش الحرّ التي أتت من منبج، وتحرّرت المنطقة من سيطرة النظام بمشاركة عددٍ من أبناء المنطقة الذين كانوا يشكّلون ما يعرف بكتيبة الشهيد عبد العزيز كذّال، وحاول الأهالي بقاء المنطقة تحت حمايتهم، وكانوا يخشون من الوحدات الكرديّة التي كانت تدّعي تحرير عين العرب من سيطرة النظام، بينما كانت الفروع الأمنيّة على رأس عملها في المدينة، وشارك أبناء المنطقة، ومنها كتيبة أحرار الشيوخ في معارك حلب، وخاصّة في جبهات خان العسل ومعارة الأرتيق، ومعارك الثوّار عند مدينة تلّ أبيض تحت قيادة كتائب الفاروق.

عندما دخل تنظيم «داعش» إلى ريف حلب أواخر عام ٢٠١٣، كانت كتائب الفاروق مسيطرة على الوضع في المنطقة، ولم يخشَ الأهالي من «داعش» واعتبروه زائلاً لا محالة، إلى أن تمّت محاصرة الثوار في بلدة الشيوخ الذين لم يصمدوا إلّا أيّام قليلة، حتّى دخل رتل عسكريّ للتنظيم، كان قد أتى من بلدة الراعي شمالي مدينة الباب، وقام بعض أبناء بلدة الشيوخ من الذين بايعوا «داعش» سرًّا في البلدة، بمهاجمة الثوّار من الداخل حين هجوم «داعش»، حيث حدثت مجزرة بحقّ الثوّار راح ضحيّتها ٢٤ شهيداً، وسيطر عقبها تنظيم «داعش» على البلدة وبلدات وقرى المنطقة.

«داعش» وصراعات السيطرة و مصيدة موت المدنيّين

بعد سيطرة «داعش» على المنطقة، وقع الأهالي بين قمع واستبداد «داعش» وتصفيته للعديد من أبنائهم، وبين القصف المتوالي من مواقع النظام، وهجوم الوحدات الكرديّة التي ارتكبت عدّة مجازر وانتهاكات، وباتت تتنازع السيطرة مع «داعش».

ففي بداية شهر آب عام ٢٠١٣، سيطرت الوحدات بعد معارك عنيفة مع «داعش» على ناحية الشيوخ وقورديغا وقناية ودكرمان وعوينة، وكلّ القرى المحاذية للشريط الفراتيّ، بعد أن انسحبت جميع كتائب الجيش الحرّ من المعارك، وكانت قوّات النظام تساند الوحدات الكرديّة في هجومها على مجبل بير حسّو وقرية السبت وأطراف صوامع صرّين، تزامناً مع بدء العمليّة العسكريّة على عين العرب في ذلك الحين، كانت سيّارات الوحدات الكرديّة وآليّاتهم العسكريّة تحمل علم النظام إلى جانب علمهم، ثمّ عاد «داعش» وانتزع المناطق تلك من الوحدات الكرديّة، لتبقى تحت سيطرته، لحين تدخّل طيران التحالف الدوليّ ليتمّ طرد «داعش» منها خلال حزيران (الشيوخ)، وأواخر تمّوز (صرّين) ٢٠١٥، لتصبح المنطقة تحت سيطرة الوحدات الكرديّة .

بقيت الشيوخ وصرّين والقرى المحيطة بهما، نحو أربعة أشهر تحت قصف طيران التحالف، ووسط معارك يوميّة على أطرافها الشماليّة والشرقيّة بين «داعش» من جهة والوحدات الكرديّة، وصدرت العديد من البيانات لناشطين محلّيّين توضح القصف العشوائيّ بعشرات قذائف المدفعيّة والدبّابات التي تساقطت على المدنيّين، بهدف إخراجهم من بيوتهم في بلدة صرّين وقراها، وليواصل الطيران استكمال ما تقوم به القوّات على الأرض، ممّا تسبّب بسقوط عدد كبير من الضحايا، كما في مجزرة بير محلّي، التي اتّهم فيها السكّان، وحدات الحماية الكرديّة بدور مباشر في وقوعها، والتي سقط فيها ٦٨ مدنيًّا، بقي منهم تحت الأنقاض لعدّة أيّام بسبب منع الوحدات الكرديّة أهاليهم من دخول القرية لإخراجهم؛ كما اتّهم سكّان عدد من البلدات وحدات الحماية بأنّها كانت تشير لطيران التحالف بالرصاص الخطّاط، ليقصف المدنيّين، كما حصل في بير محلّي والتي دفعت ثمن موقعها الجغرافيّ كأوّل قرية عربيّة على حدود القرى الكرديّة.

جرائم وانتهاكات بالجملة، تحت حكم الوحدات الكردية

كانت حملة الوحدات على بلدة صرّين تحت مسمّى «الانتقام لقتلى كوباني»، إشارة إلى المعركة الأخيرة التي جرت في مدينة عين العرب (كوباني)، فكيف كان انتقامهم؟

التهجير القسريّ للسكّان ونهب الممتلكات يقول عدد من الشهود من سكّان بلدة صرّين:

عقب ساعات قليلة من سيطرة الوحدات الكرديّة على بلدة صرّين، تمّ الإعلان عبر مكبّرات الصوت من سيّارات عناصرهم ، وفي المساجد وأحياء البلدة، عن ضرورة اجتماع السكّان في ساحة وسط المدينة لغرض مناقشة أوضاعهم، وبعد وصول الناس وتجمّعهم، تمّت محاصرتهم بعشرات العناصر المسلّحة، وأخبروهم بأنّه عليهم ترك منازلهم ومغادرة البلدة، وعندما رفض الأهالي بشكل جماعي ما طُلب منهم، تمّ منحهم مهلة لساعات، وبقوا لساعات طويلة تحت حرارة شمس تمّوز وقت الظهيرة، ممّا أدّى إلى وفاة طفل عمره ثلاث سنوات بسبب العطش والإنهاك، ورفض العناصر إعطاءه الماء، وعندما بقي الناس على رفضهم الخروج وقاموا بمظاهرة سلميّة ضدّهم، بادورا بإطلاق النار وقتلوا عشرة مدنيّين، بينهم أطفال، وجرحوا العشرات من الشباب والرجال ومن ثمّ قاموا باعتقالهم، ممّا اضطرّ الناس للمغادرة باتّجاه بلدة القبّة التي كانت تحت سيطرة الجيش الحرّ، والذي انسحب بعد رفض الوحدات الكرديّة طلبه بترك المدنيّين وشأنهم، بينما غادر قسم آخر من السكّان باتجاه أماكن سيطرة «داعش».

خلال خروج الناس من البلدة تمّ استهدافهم بقذائف المدافع، وأجبر العديد منهم على المشي وسط حقول الألغام، ممّا أدّى إلى وفاة عدد منهم، ولإجبار السكّان على المغادرة قامت الوحدات باقتحام عدد من المنازل وإطلاق الرصاص على بعض سكّانها بهدف نشر الرعب بينهم، ممّا اضطرّهم لترك بيوتهم، وأكثر من شاهد روى عن مقتل أفراد من عائلته أمامه، ومنع عناصر الوحدات ذويه من إسعافه .

أشارت إحدى الشاهدات إلى تجميع الناس في ساحة مدرسة، حيث تمّ توزيع الماء والكولا والخبز لهم، وتصوير ذلك بكاميرات تلفزيونيّة، وعقب التصوير، تمّت إهانة الناس، وفصل الرجال عن النساء، واعتقل الذكور من عمر ١٤ عام فما فوق، ثمّ جاءت سيّارات وأجبروا على الصعود إليها، ليتمّ ترحيل النساء والأطفال إلى خارج المنطقة، وإنزالهم في مناطق شبه صحراويّة شبه خالية ومزروعة ألغام - كأنّهم استخدموا الناس كأجهزة كاشفة للألغام حسب تقرير التايمز البريطانيّة في حينه ممّا اضطرّهم للمشي عشرات الكيلومترات حتّى وصلوا إلى أماكن سيطرة «داعش»، بينما كان الأطفال والمسنّون يتساقطون على الطريق إنهاكاً وعطشاً وجوعاً، واستشهد عدد منهم، بينهم شخص مُعاق، وأطفال وبعض كبار السنّ.

ما حدث في صرّين، كان قبل أسابيع قد حدث في بلدة الشيوخ وقراها المحيطة، إذ قامت الوحدات بتدمير وحرق عشرات المنازل في الشيوخ وتلّ أحمر والجعدة وعرنة والعلكانة وغيرها، كما قامت بسرقة عشرات المنازل وإتلاف الكثير ممّا لم تتمكّن من سرقته، وحصل ذلك في قرى قره قوزاق، وبير حسّو، وخرّوص، وعرنة وغيرها .

اعتقالات جماعيّة

تحدّث الناشطون والأهالي عن اعتقال أكثر من ٢٥٠ شخصاً، من بلدة صرّين، والتي تتّهم الوحدات الكرديّة أهلها بموالاتهم لـ «داعش» أو الإنتماء له، وتتراوح أعمارهم بين ١٥ و٦٠ عاماً، وتمّ نقلتهم إلى مدينة عين العرب، بينهم عدد من الجرحى، وقد تمّ الطواف بالمعتقلين بسيّارات مكشوفة في شوارع عين العرب، وتوجيه الإهانات والشتائم إليهم من قبل عابري الشوارع، كما أجبر المعتقلون على تنظيف شوارع المدينة، وردم الحفر، ورفع الأنقاض والعمل تزامناً مع توجيه الشتائم والسباب لهم بطريقة الاستعباد و الإهانة المتعمّدة.

وبقي مصير المئات من المعتقلين من أبناء بلدتي الشيوخ مجهولاً حتّى لليوم. ثمّ قامت الوحدات بالإفراج عن عدد منهم بعد عدّة أشهر من اعتقالهم وعلى دفعات متتالية، إذ قال شرفان درويش، الناطق الإعلاميّ باسم غرفة عمليّات «بركان الفرات» في بيان نشره على صفحته الشخصيّة في الفيسبوك «أطلق سراح ٣٠ سجيناً من صرّين، كانوا قد اعتقلوا أثناء تحرير صرّين، بعد انتهاء التحقيقات الضروريّة وثبوت عدم تورّطهم بأيّة جرائم مع داعش». بينما بقي العدد الأكبر مجهول المصير.

حرق البيوت والممتلكات بعد نهبها

في بلدة الشيوخ وقراها، أفاد الشهود وعدد من البيانات الرسميّة، بأنّ وحدات الحماية الكرديّة قامت بحرق آلاف الهكتارات من المحاصيل الزراعيّة في كلّ من: الشيوخ، والجعدة، والصنع، وكيك دهده، والديكان، ومتراس، وكاور خراب، والصلالوة، وقرشان، والمربّع، وعرنة، وقراط، ورأس العين، وتلّ أسود، وغيرها. كما أحرقت القرى البعيدة عن سيطرتها بإطلاق قنابل حارقة، في حين أحرق عناصرها المحاصيل بالقداحات، بحسب الشهود.

كما حصل في قرى (عرنة، وقراط) حسب تصريح نائب الرئيس الاقتصاديّ لمحافظة حلب الحرّة عبد الملك الشيخ والذي تتّهمه الوحدات الكرديّة بموالاته لـ «داعش».

وعقب السيطرة على الشيوخ نشر النشطاء عشرات الصور على مدى أيّام، والتي تظهر اشتعال النيران في الأراضي الزراعيّة في منطقة الشيوخ فوقاني، وفي صرّين تمّ الاستيلاء على كلّ محلّات السوق العامّ، وأحرقت عدداً من المنازل في بعد نهب محتوياتها بعد اتّهام مالكيها بأنّهم من تنظيم «داعش». وأفادت إحدى الشاهدات من سكّان صرّين لعدد من مراكز التوثيق ووسائل الإعلام: «سرقوا البيوت، وسرقوا الذهب من أيدي النساء، وقاموا بإفراغ المحلّات تماماً من كلّ شيء وكأنّهم سيرحلون بعد ساعة، وفي ظهر الجمعة أبلغوا جميع الناس بأنّ عليهم مغادرة صرّين، وخرج الناس في مظاهرة تنادي بعدم التهجير والبقاء في أرضهم، فبدأ عناصرها بضربهم بالرصاص حتّى استيأس الناس وبدؤوا بالخروج من صرّين صباح السبت، الساعة الخامسة فجراً، تحت إطلاق الرصاص والشتائم، وعلى الطريق رأيت الناس ترتمي أرضاً، كان و كأنّه يوم الحشر».

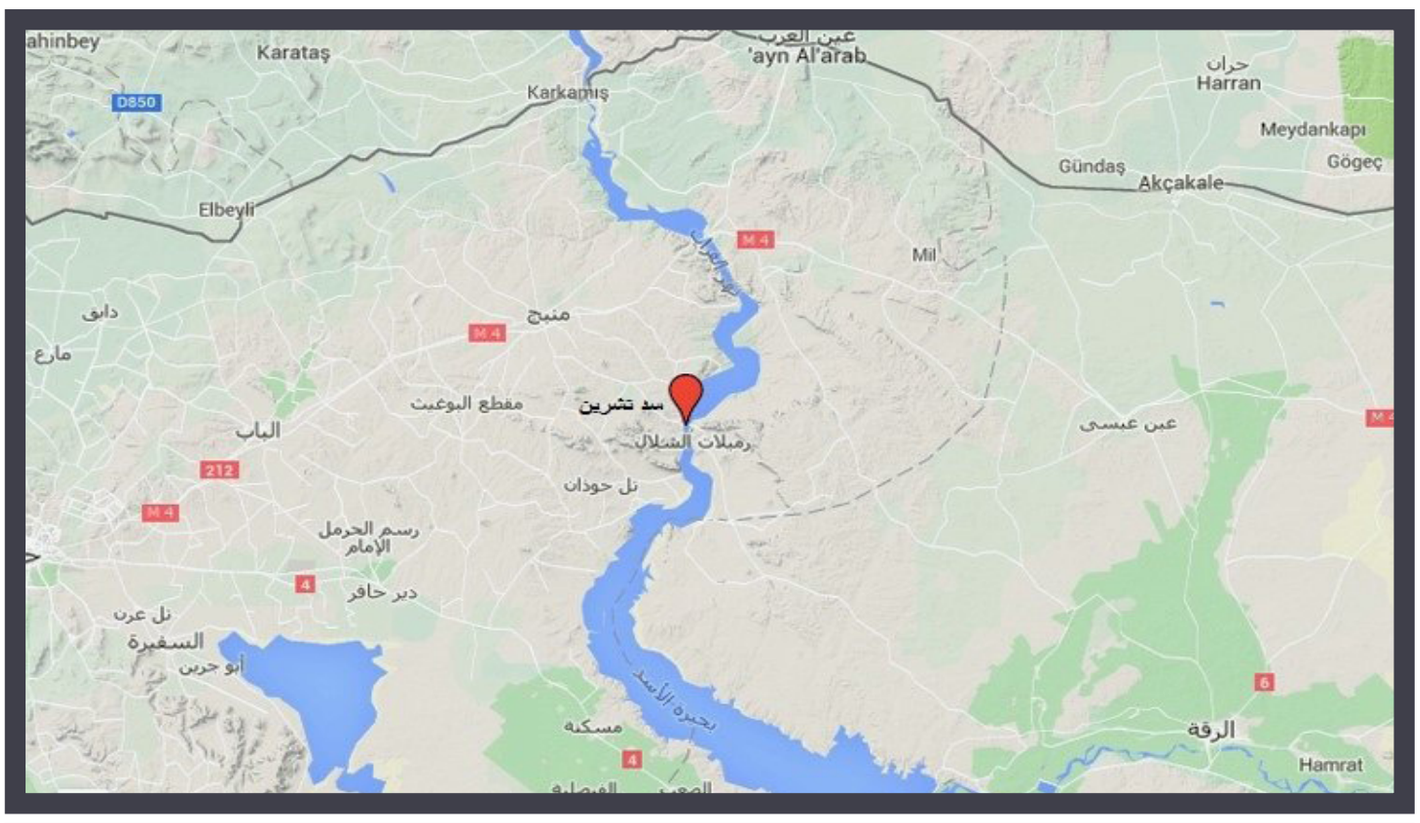

د. خولة حسن الحديد

الخلخال ثقافة عبوديّة غير مقصودة

”ولا يضربن بأرجلهنّ ليعلم ما يخفين من زينتهنّ“. النور35

بحسب تفسير الطبري لهذه الآية يقول إنّ: امرأة اتّخذت برتين (وهو ضرب من الخلخال من فضّة)، في رجليها، فمرّت بقوم وضربت برجلها فوقع الخلخال وأصدر صوتاً، فنزلت هذه الآية.

وعلى خلاف صحّة تفسير الطبريّ أو عدم صحّته لنزول الآية، فإنّ الحقيقة الوحيدة والمسلم بها، أنّ الخلخال (كزينة أنثويّة) ورد شرعاً في القرآن، ولو أنّه لم يكتب حرفيًّا، لكنّ المعنى واضح من حركة القدمين في الضرب، فما يُلبس بالأقدام هو أساور القدم.

ذلك الورود القرآنيّ، هو لاحق عن ثقافة أقدم في التاريخ، فمثلما كانت كصبغة تزينية لدى عرب الجزيرة فقد استخدمه الآراميّون في مدينة أوغاريت، وراقصات عشتار، وسميراميس وزنوبيا وكيلوباترا، حتّى أنّه كان كثير الانتشار في اليمن، ولدى الفراعنة أيضاً، يمكن القول إنّ الخلخال تاريخيًّا هو صنيعة منطقة أوسطيّة.

فالخلخال ليس ابتكاراً خاصًّا بشبه الجزيرة العربيّة، ولا بالعالم الإسلاميّ، وإنْ أصبح فيما بعد مرتبطاً معرفيًّا بثقافة أكثر إسلاميّة، لما أبيح له من تشريع منصوص عليه في كتاب سماويّ، وليس فقط توارثات اجتماعيّة كأعراف.

ذلك التشريع الواضح الذي ورد بسورة النور وبأكثر من آية اختصّت بمفهوم الزينة العامّة.

تلك التشريعات وما تبعها من ممارسات سلوكيّة مجتمعيّة متنوّعة، أسّست بعد ألف ومئة عام لظهور نسخة دقيقة ومساهمة (كتفاصيل صغيرة) لتأسيس فكر الاستشراق في الغرب، والتي مازالت الثقافة الجنسيّة الشرقيّة تعيش اضطراباً مزدوجاً ما بين نفض التهمة الاستشراقيّة العامّة عنها، وترويج حداثيّ لثقافة غارقة بالصحراء. يُعتبر الخلخال مثالاً حيًّا لنهضة وتطوّر الوعي الجنسيّ في العالم الشرقيّ عامّة والعربيّ الإسلاميّ خاصّة، فتلك المادّة المعدنيّة التي تُحيط الكاحل، وتصدر صوتاً أثناء المسير، وتُثير لا الحسّ البصريّ المباشر فقط، بنوعين منه (ذهب وفضّة)، بل تعدّتها لخلق موازنات جنسيّة بين الحسّ المادّيّ المباشر والصوت البديل الصادر عن حركة الخلخال، إنّها نوع من شبق متوار، يُحقّق شرط الاستثارة البافلوفيّة، تماماً مثّلما كان الحال في عصر المماليك والعصر العباسيّ.

كان الخلخال قديماً عبارة عن أساور عريضة تلبس في الكاحل للزينة، أو في الأذرع لإثبات زواج المرأة، لكن تلك المادّة المعدنيّة تطوّرت ليصبح لها أشكال ونظام متعارف عليه، كمدى صغر حلقاته، أو لونه، أو ثقله، أو حتّى لتتميّز ع مستوى الشهوات الذكوريّة، كحركة رنين، ففي العصر العباسيّ، أصبح الخلخال شرطاً للراقصات في مجالس الأمراء أثناء حفلات الموسيقى والطرب، لقد كانت نوعاً من تطوير المفهوم الجنسيّ، وشرطاً استثاريًّا وتمهيديًّا لممارسة الشبق.

تلك الحالة المختصّة بمناطق الشرق، أوحت لتطوّر العالم الغربيّ ومحاولة فهمه لطبيعة المجتمعات التي كانت ما تزال تمارس الغريزة بمستوى المُحفّز الحسّيّ وليس بالوعي المتطوّر، بمعنى أنّ النظرة الاستشراقيّة التي جالت في فنّ الرسم الغربيّذ حول طبيعة المرأة التي ترقص وأجزاء من جسدها واضحاً للعيان، وهي ترتدي الذهب في الأيادي أو الخلاخيل في الأقدام، جاءت من وضوح الصورة الحقيقة للشرق والمغرقة فيه، وهي أنّ الجنس يحتاج محفّز حسّيّ مباشر لتوسيع رقعة خيال الشبق، وهي الصورة نفسها التي أعلنت المرأة كحالة نفسيّة عبوديّة اتّجاه الذكوريّة والفحولة المحضة. فجاء الاستشراق الفنّيّ لتحليل بنية مجتمعيّة للغريزة.

مع تطوّر الفكر الشرقيّ وصعود حالات توعويّة، بدأت ثورة الرفض للنظرة الاستشراقيّة التي أنتهجها التحليل الغربيّ، والركض للحقّ المجتمعات المتقدّمة، ومحاولة نفي تلك النظرة، لكن بقي الفنّ الأوروبّيّ معبِّرا عن تلك الوصمة التي وُصِم بها الشرق، وأصبحت جزءاً من تراث عالميّ.

وبعيداً عن تحليل مدى الصراع الذي خاضه متنوّرو الشرق في حربهم لنفض تلك التهمة الاستشراقيّة، فإنّ الخلخال (كتفصيل صغير في بنية الشرق) يبقى في مجابهة مع الفكر التحليليّ. وبالعودة قليلاً إلى الماضي، نشعر أنّنا أمام بنية حكائيّة من عوالم ألف ليلة وليلة.

قلنا إنّ المهمّة التاريخيّة للخلخال هي الزينة بحسب ما أورد التاريخ، لكن بالوقوف أمام الحالة النفسيّة لطبيعة الرنين الناتج عن احتكاك الذهب أو الفضّة، مع تقديم صورة القدم الأنثويّة كمعبر عن جزء جنسيّ تفصيلي ودقيق لامتدادات خياليّة شبقيّة مستترة نحو الأعلى، يخرج الرمز المزدوج للخيال بفعل الاستثارة.

ذلك الدمج الضبابيّ وغير الواضح بالنسبة لكثير من الناس، استُقيَ عبر التاريخ ونُقِل بموروثات الجينة الإسلاميّة، التي تساهم بخلق الفحولة والقوّة الذكوريّة ومدى قدرتها على فعل الرنين المعدنيّ أثناء المضاجعة، وساهم أيضاً بخلق صورة المرأة لنفسها التي تعتمد برضى كامل عن خضوعها لجبروت العبوديّة.

فهي ترتدي الخلخال ليس فقط بالوعي المباشر لإدراك أنوثتها، بل لوعي غير مباشر بفعل الرنين وما يخلقه من فحولة ذكوريّة هائجة تمارس قوّة المضاجعة فيها.

تلك القوّة التي تفعل فيها شعوراً بالطمأنينة والخضوع لسطلة المتعة، دون إدراك لعبوديّتها المتجّسدة بإثقال الجسد داخل دوامة من المعدن.

في نهاية الأمر، الخلخال ليس مثل أيّة زينة أخرى كالخواتم أو الأساور، إنّها تمتلك صبغة عنفيّة غير مباشرة وعبوديّة مثقلة، إنّها التجلّي الآخر للاستعباد في مرحل التاريخ البشريّ الأوّل، إنّها تشبيه بتجارة الرقيق الذي يحكم فيه الإنسان بوضع الحديد في قدميه منذ العصور القديمة إلى العصور الحديثة في أمريكا، وضمن هذا الاستعباد، يدخل الخلخال كصيغة غير مباشرة في العبوديّة غير المدركة بالنسبة للمرأة، تحت مسمّى آخر وهو النزوع إلى حرّيّة الفعل.

ولا أعتقد أنّ التشريع جاء عن عبث في هذا الأمر، فالجنس هو أحد مقوّماته، بما يناسب ذكور أكثر فحولة، وعبوديّة ارتضائيّة لإمرأة تدافع بكلّ ما أوتيت من قوّة عن عبوديّتها.

علياء الويسي

نساء حلب يواجهن الحصار ...

لا معونات، والمحلّات فارغة والموت على الأبواب

يقول المثل الشعبي: ”يلي ايدو بالمي مو مثل يلي ايدو بالنار“، وهو مثل يصلح مقدّمة لما يجري في حلب من رعب يوميّ وموت عبثيّ ومجّانيّ، ما بين حلب الشرقيّة وحلب الغربيّة قصص موت غير آدمي ، قصص تخطّت حدود الخيال، ملايين المظاهرات لن تطعم طفلاً، ولا كتابة بوست شجب سوف يهدهد قلب طفل فقد والديه أمامه، نعم قد تحرّك ضمير الرأي العام العالميّ، ولكنّها لا تحرّك ضمير أصحاب القرار لتتوقّف هذه المقتلة اليوميّة.

الأطفال والنساء وكبار السنّ هم من يدفعون الضريبة الكبرى من هذا الحزن اليوميّ، صور أشلائهم ولحمهم المكوم تحت الحجارة، لن تهزّ شعرة ممّن يعيشون ويقتاتون على بقايا من تبقى حيًّا في تلك المناطق.

طحين وماء وسكر

حاولت خلال الأسابيع الماضية أن اتّصل بعدد من الأصدقاء الناشطين المدنيّين في حلب، لسؤالهم إن كان بالإمكان إنقاذ عائلة، وتقديم الطعام لهم أو مخرج آمن إلى ريف حلب الشماليّ، ولكن للأسف لم أحصل إلّا على وعود، أعرف أنّها كانت صادقة، ولكن ليس باليد حيلة، لا أحد يستطيع فعل شيء!

تلك العائلة مؤلّفة من أمّ في مقتبل العمر وثلاثة أطفال أكبرهم فتاة بعمر الستّ سنوات، لا يوجد لديهم طعام، ونتيجة القصف الجوّيّ ينزحون من مكان إلى آخر.

الأطفال باتوا في حالة هزال شديد، يتبوّلون ليلاً على أنفسهم من الخوف، الأمّ لا حول لها ولا قوّة، آخر طعام قدّمته لهم كان عبارة عن طحين وماء وسكر، أمّا الغداء فكان بصلاً وخبزاً.

تلك ليست تراجيديا ولا فيلماً سينمائياً خياليًّا، إنّها حكاية شعب يتألّم أمام قبح البشرية جمعاء.

عندما تكلّمت معها وسألتها عن أحوالها قالت: الحمدلله ”عايشين“! نعم قياساً بغيرهم هم في نعمة كبيرة، ولكن أيّة حياة هذه، وهم يحلمون بيوم راحة وطمأنينة.

أدعي لهم بالموت إن كان رحمة

تقول السيّدة أم صفوان: ”ما يفصلني عن منزل ابني هو شارع فقط أي مسير خمس دقائق فقط إلى منطقة السكّري“ ضمن المناطق المحاصرة، ولكنّها كي تذهب إليهم عليها أن تسافر لمدّة ١٥ساعة كي تراه، هذا كان قبل الحصار أمّا الآن فالأمر مستحيل.

سألتها إن كانت تتكلّم مع ابنها وأولاده الأربعة، فقالت: ”إن هذا أصبح من النادر، فغالباً الشبكة مقطوعة من شدّة قصف الطيران“. وتتابع: ”البارحة كانت ليلة شديدة عليهم، فكل قذيفة مدفع أسمعها قبل أن تنزل عليهم، والطيران يمرّ من فوق بيتي قبل أن يرمي على مناطقهم“.

سألتها وماهو شعورك؟ ردّت بسخرية : ”هل تعلمين أنّ مشاعري تجمّدت! ، واليوم بالذات ، قلت يا ربّي أنا لا أستطيع أن أعمل أيّ شئ لأيّ شخص ، أنت وكيلهم وتعرف أين الخير، فاختره لهم وأيًّا يكن أنا راضية، لو كان موتهم رحمة لهم و خيراً فاقسمه لهم أنت العليم ولو به شر أبعده عنهم“ .

”لقد أصبحت بحالة استسلام كامل وشلل، لا أستطيع فعل شيء، وتابعت: أنا واحدة أخرى غير التي تعرفينها“!

الفقير والمحاصر في خانة واحدة

تحتال المرأة الحلبيّة على الوضع المادّيّ المتدهور باختراع بدائل للطعام، فالكنافة تصنعها من طحين المعكرونة بدلاً من السميد، ونظراً لغلاء اللحوم، يضعن بدل ”هبرة“ اللحمة في الكبّة الخبز اليابس، أمّا اللحوم فأصبحت نادرة الوجود في البيوت، وأصبح الفروج إن وجد هو المادّة الأساسيّة في موائد الحلبيّين التي كان عمادها الأساس هو اللحم. هذا كان قبل الحصار أمّا الآن فالأمر بات أكثر صعوبة.

فتقول السيّدة أمّ شعبان: البيض والحليب والجبنة والزيتون لا يوجد أثر له، ”الدنيا مسكّرة والمحلّات فاضية لا يوجد لودلين ولا دوا غسيل، الله لا يرويكي اش داحيكلك لا احكيلك، ادعيلنا بس يفتح الطريق ويدخل أي شيء ، باكيت الدخان ب ٥٠٠٠ ليرة إن وجد ، ولي على معلاقي العالم رايحة تجن“.

أمّا السيدة ضحى وهي في المناطق الغربيّة: الحال من بعضه، لقد ضاقت الدنيا على الجميع، ويخيّل لكم أنّ الأمر أفضل حالاً هنا، فالفقير يرى بأمّ عينه ما لذّ وطاب ولكنّه لا يستطيع شراءه.

لقد زادت نسبة الفقر، ونسبة الأشخاص الفاقدين لأطرافهم في شوارع حلب، هناك سيّدة في منطقة الجميليّة بلا قدمين تشحذ في منتصف الطريق، وقلّة هم من يتعطّفون عليها، من هول المنظر الذي هي به، أو من ضيق الحال. أموت أنا وأولادي

السيّدة رغداء، لديها مسكن في حلب الغربيّة وكانت قبل الحصار تستطيع أن تخرج وتجلس في بيتها، ولكن لديها شابّان مقاتلان في إحدى الكتائب المقاتلة ضدّ النظام. تقول: ”كيف لي أن أتركهم وأجلس بأمان، رغم أنّه لا يوجد أمان لأيّ حلبي؟“ لم أستطع أن أبتعد عنهم، ولديّ أولاد ابني يتامى، لمن أتركهم؟ لقد ضاقت خياراتنا ، وأصبحنا نفاضل بين أنواع الموت . وتضيف: الأرامل في المناطق الشرقيّة قبل الحصار كان لهنّ راتب شهريّ ١٠٠ دولار مع تأمين مسكن ومعونات أسبوعيّة، لذلك كثيرات منهنّ فضّلن البقاء هناك، كما أنّ من لديه مسكن حتّى لو كان معرَّضا للقصف، يُفضّل أن يموت تحت سقف بيته من أن يموت مشرداً .

على ماذا أطمئنك؟

أجابتني السيّدة كوثر بألم عندما قلت لها: ”طمّنيني عنكم“ بالقول ”على ماذا أطمّئنك؟ ضرب ليل مع نهار، مافيه أكل ما فيه شرب ومافيه مي ومافيه كهربا، قاعدين دايخين“.

وتابعت: ”إذا ربّ العالمين كريم معنا أتمنّى أن يسارع بأخذ أمانته، نعيش تحت فكرة الموت كلّ لحظة، عندما يموت أحد نقول ارتاح، بالأمس كان يجلس زوجي مع أصدقائه الأربعة، اليوم كان يجلس مع واحد منهم فقط لأنّ الثلاثة ماتوا بالقصف. في الليل لا تسمعين إلّا أصوات الأطفال وبكاءهم من الجوع. النساء يتكافلن، من لديها مواد غذائيّة تتشارك مع جاراتها، بحيث كلّ واحدة منهنّ تقدّم ما تستطيع، ولكنّ المواد تنفد ولم يعد لدينا ما نستند عليه“.

حلب لا تستحق

إنّ ما يدفعه المدنيّون في هذه الحرب أكبر من طاقة احتمالهم، وعلى الرغم من تمسّكهم ببيوتهم، إلّا أنّ ضنك العيش قاتل، والموت ليس رحيماً بأحد، يأخذ عزيزهم من أمامهم، يدفنون قتلاهم ويعودون لتدبر أمور معيشتهم التي تكاد تنضب، على أمل أن يتمّ فتح ممرّات للمساعدات الإنسانيّة. حلب وسكّانها لا يستحقّون ما جرى ويجري لهم كما كلّ شبر من أرض سورية، وتبقى المرأة هي الرافعة الأساسيّة لأيّ عمل مدنيّ فيه حياة وحبّ.

عن ”شبكة المرأة السوريّة“

خولة غازي

إدوارد سعيد .. تغريب الغرب

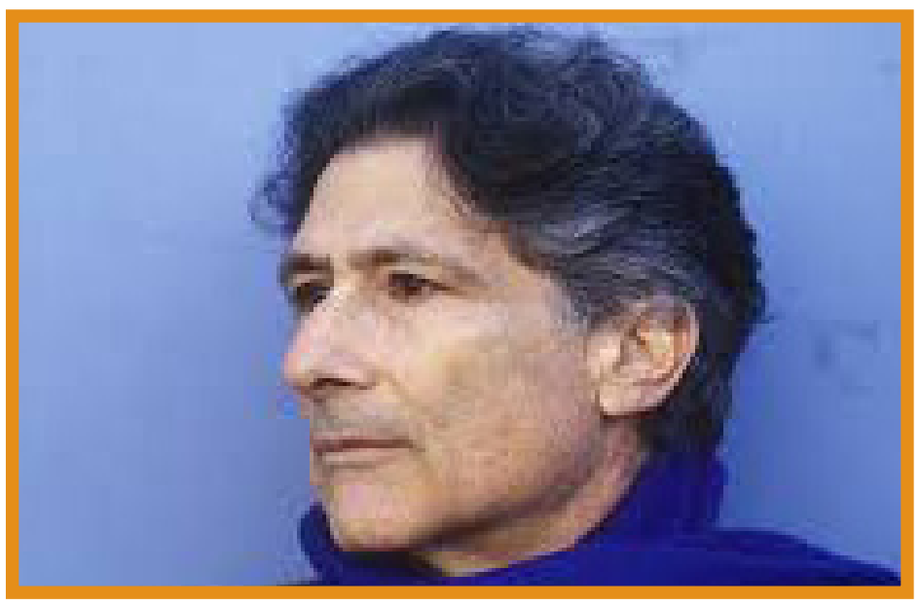

هو الدكتور إدوارد وديع سعيد، مُنظّر أدبيّ فلسطينيّ، أمريكيّ الجنسيّة. وُلد في القدس عام ١٩٣٥ لعائلة مسيحيّة، تتبع للكنيسة البروتستانتيّة الإنجيليّة، وتوفي في الولايات المتّحدة عام ٢٠٠٣، بمرض اللوكيميا. بدأ سعيد دراسته في مرحلة الصبا داخل المدرسة الإنجليكيّة في القدس صغيراً، رغم ما أثار جدلاً في الأوساط الثقافيّة عن حقيقة ذلك الأمر لتاريخ سعيد فيما بعد، فقد وصف البعض تلك المرحلة أنّها غير دقيقة، وبأنّ سعيد لم يدرس في القدس، لإسقاط صفة الدراسة في فلسطين قبل عام ١٩٤٨، مما يجعل الفضل بتطوّر الثقافة الفلسطينيّة تابع لوجود إسرائيل، وتعتبر هذه المغالطة التاريخيّة بداية الوعي لإدوارد مع مفهومه حول الغرب، وكيف ينظر بشكل استشراقيّ فيما بعد. في عام ١٩٤٨، تمّت مصادرة جميع أملاك والد سعيد في القدس، ممّا اضطرّهم للرحيل إلى مصر، ومنعهم من العودة إلى بلادهم. درس تلك الفترة في كلّيّة فيكتوريا في الإسكندرية بمصر، ثمّ سافر بعد ذلك إلى الولايات المتّحدة الأمريكيّة كطالب، وحصل على درجة البكالوريوس من جامعة برنستون عام ١٩٥٧، ثمّ الماجستير عام ١٩٦٠، والدكتوراه من جامعة هارفارد عام ١٩٦٤.

قضى إدوارد سعيد معظم حياته الأكاديميّة أستاذاً في جامعة كولومبيا، حيث كان أستاذ الأدب المقارن، لكنّه كان يتجوّل كأستاذ زائر في عدد من كبريات المؤسّسات الأكاديميّة، مثل جامعة يال وهارفرد وجون هوبكنز.

تلك الحال من التنقّل والبحث عن المعرفة الأكاديميّة أتاحت لسعيد فترة من حياته لتلقي العلوم وخاصّة اللغات، فأتقن الإنكليزيّة والفرنسيّة بطلاقة، وألمَّ بالأسبانيّة والألمانيّة والإيطاليّة واللاتينيّة، قبل أن يتفرّغ لإنشاء مشروعه الرئيسيّ والذي تجسّد بكتابه الاستشراق عام ١٩٧٨.

بالإضافة إلى كونه ناقداً أدبيًّا مرموقاً، فإنّ اهتماماته السياسيّة والمعرفيّة كانت متعدّدة وواسعة وتتمحور حول القضيّة الفلسطينيّة والدفاع عن شرعيّة الثقافة والهوّية، وعن عدالة هذه القضيّة وحقوق الشعب الفلسطينيّ. كما تتركّز اهتماماته والموضوعات التي يتناولها على العلاقة بين القوّة والهيمنة الثقافيّة الغربيّة من ناحية، وتشكيل رؤية الناس للعالم وللقضايا من ناحية أخرى.

ويوضّح إدوارد هذه المسألة بأمثلة عديدة وبتفاصيل تاريخيّة في مسألة الصهيونيّة، وترعرعها في الغرب، ونظرة الغرب إلى العرب والإسلام والمسلمين وثقافات العالم الأخرى. ويشرح كيف أنّ الإعلام الغربيّ والخبراء وصنّاع السياسة والإمبرياليّة الثقافيّة الغربيّة تتضافر كلّها لتحقيق مصالح غربية غير عادلة في نهاية المطاف، وذلك عن طريق إيجاد خطاب منحاز ثقافيًّا إلى الغرب ومصالحه.

إلى جانب ذلك، أظهر سعيد اهتماماً بالجانب الموسيقيّ، فكتب العديد من المواضيع في دوريّة «ذا نيشن»، وألّف ثلاثة كتب حول الموسيقى، وهي متتاليات موسيقيّة، كتاب المتشابهات والمتناقضات، واستكشافات في الموسيقى والمجتمع، فأسّس مع الموسيقار الإسرائيليّ دانييل بارينبويم، أوركسترا الديوان الغربيّ الشرقيّ عام ١٩٩٩، كما أصدر بحوثاً ودراسات ومقالات في حقول أخرى متنوّعة من الأدب الإنجليزيّ، وهو اختصاصه الأكاديميّ، فكان يكتب مقالاته بشكل دوريّ في الصحف العالميّة (من أمثال، لوموند ديبلوماتيك، والغارديان، وكونتربونش، وذا نيشن، والحياة).

كانت إنطلاقة سعيد في بحوثه الأكاديميّة عام ١٩٦٦، عندما أصدر كتابه الأوّل بعنوان «جوزيف كونراد ورواية السيرة الذاتيّة» وهو كان امتداداً لأطروحته، وفيه كان سعيد قد بدأ بوضع الأسس الأولى لمشروعه الفكريّ الذي شرّح فيه الهيكليّة الفكريّة للمنظومة الاستعماريّة، ومدى البنية الثقافيّة التي تقوم على التعامل مع الآخر.

كما أصدر فيما بعد كتابه عام ١٩٧٤، القصد والمنهج، وكان هذان الكتابان الركيزة الأساسيّة لقيامه بكتابة الاستشراق عام ١٩٧٨. والذي يعتبر الجوهر العميق لنظريّة اتّجاه العالم الغربيّ.

لم يتوقّف الأمر لدى سعيد بالبحث المعرفي المجرّد، بل دخل غمار العمل السياسيّ المباشر، من خلال إسقاط فكره على الواقع المُعاش، فعمل من أجل إقامة الدولة الفلسطينيّة، وكان عضواً مستقلاً في المجلس الوطنيّ الفلسطينيّ بين عامي ١٩٧٧ و ١٩٩١، إذ استقال في ذلك التاريخ احتجاجاً على اتفاقيّة أوسلو، حيث كان يرى أنّ مثل هذه الاتفاقيّات لا تؤدّي لقيام دولة فلسطين، وقد وصلت العلاقة بين سعيد والسلطة الفلسطينيّة ذروة التوتّر عام ١٩٩٥، عندما منعت السلطة الفلسطينيّة بيع كتب سعيد في أراضيها. وقد كتب الكثير من الأعمال في هذا الجانب، ككتابه القضيّة الفلسطينيّة، وسياسة التجريد، ونهاية عمليّة السلام، وأوسلو سلام بلا أرض، بالإضافة لكثير من المقالات الدوريّة، وكان ذلك بتشريح المواقف السياسيّة لإسرائيل من القضيّة الفلسطينيّة من منظور استشراقيّ.

الاستشراق في عام ١٩٧٨، أصدر إدوارد سعيد كتابه المعنون بالاستشراق، والذي فعل أثر القنبلة في الثقافات العالميّة والغربيّة خاصّة، لما احتواه من تشريح لمفهوم نظرة الغرب اتّجاه البلاد الشرقيّة.

يحتوي الكتاب على مقدّمة وثلاثة فصول. ويقول سعيد في المقدّمة (وهي كانت الباعث على فكرة تأليف كتاب الاستشراق): كتب أحد الصحفيّين الفرنسيّين يصف فيها الوسط التجاريّ في بيروت إبّان الحرب الأهليّة «لقد بدت ذات يوم وكأنّها تنتمي إلى شرق شاتوبريان ونرفال».

بالطبع لا يعرف الشرقيّ من هو نرفال أو شاتوبريان، وهما أوّل من أسّسا فعليًّا لنظرة الغرب اتّجاه الشرق، وفي كتابهما، يتحوّل الشرق إلى تصنيم من أيّ فعل واقعيّ وحيّ اتّجاه الحياة والفكر وتطوّرهما، وإبقاء العقل الشرقيّ أسير حضارة انتهت، يدور في حلقة الروحانيّة الشرقيّة دون تقديم أو تطوير للفكر. ويصفان في كتابيهما ذلك السحر الشرقيّ القائم على العلاقة العفويّة مع الروح والألوهة، وضرورة بقاء الشرق ضمن هذه الثيمة.

على هذا الأساس انطلق سعيد في تدوين كتابه «الاستشراق». ويعبّر سعيد عن فهم الغرب للشرق، بأنّ الشرق هو اختراع غربيّ، ومكان للتجارب الاستثنائيّة، بالإضافة إلى أنّه جزء من ثقافة أوروبّا وحضارتها. ويكشف عن الخطط التي أنتهجها الاستشراقيّون في شرقنة الشرق والسيطرة عليه اجتماعيًّا وسياسيًّا وعسكريًّا وعقائديًّا وعلميًّا وتخيّليًّا.

يبدأ الفصل الأوّل من الكتاب بعنوان مجال الاستشراق، ويشمل الأقسام: التعرّف إلى الشرق \ الجغرافيا التخيّليّة وتمثيلاتها، شرقنة الشرق \ مشاريع \ أزمات. وفيه ينطلق سعيد بوعد بلفور الذي ركّز على أمر مهمّ وهو أنّ المعرفة تمنح القوّة، ومزيد من القوّة تحتاج إلى مزيد من المعرفة.

والمعرفة في نظره تعني المسح الكامل لحضارة ما من أصولها الأولى إلى ذروتها.

لذلك انكبّ الأوربّيّون منذ عصور سحيقة على دراسة الشرق والشرقيّ كصيغة تدريسيّة، وعلى هذا اعتُبر الشرقيّ شيئاً يُدرّس ويؤدّب.

فكانت الدراسة الاستشراقيّة منذ البدء مثقلة بالشعور بالفوقيّة والدونيّة. ويعتبر الاستشراق رؤيا سياسيّة للواقع، روّج المستشرقون بنيتها ليفرّقوا بين المألوف (أوروبّا، الغرب، و «نحن») وبين الغريب (الشرق، المشرق، و «هم»). وهذا يعني أنّ تلك الرؤيا خُلقت أوّلا، ثمّ أصبحت واقعاً يعيشه المستشرقون، ويألفه الشرقيّون.

وهنا تكمن المشكلة بأنّ الوعي الشرقي لم يعد يرى نفسه إلّا داخل تلك النظرة الغربيّة وأصبح يدافع عنها. إنّ الاستشراق هو فعل تدجيني لثقافة مغايرة.

ويأتي الفصل الثاني من الكتاب بعنوان البنى الاستشراقيّة وإعادة خلق البنى، ويشمل الأقسام التالية : حدود أعيد رسمها \ سلفستر دو ساسي وأرنست رينان \ الإقامة في الشرق \ الحجّ والحجّاج. وفيه يركّز سعيد على أنّ الاستشراق ارتكز على أربعة عناصر، وهي التوسّع، من أنّ بداية الدراسات الاستشراقيّة كان مختصّة في أقاليم الديانات السماويّة، وكيف أنّها أخذت بالتوغّل خارج حدود العالم الإسلاميّ. والعنصر الثاني كان في المجابهة التاريخيّة بين الحضارات، وعن طريقة التعامل التاريخيّ مع الثقافات غير الأوروبّيّة.

والعنصر الثالث هو التعاطف، حيث يخفّف الغرب أسلوب سيطرته والحدّة بالمواجهة الدينيّة من خلال إظهار التعاطف مع مطالب الشعوب الشرقيّة ذات النزعة الإنسانيّة.

وأخيراً كان التصنيف الذي ينزع إلى تصنيف الطبيعة والإنسان بحسب العرق والجنس والأصل واللون والمزاج والشخصيّة. ورغم أنّ هذه العناصر تمثّل اتجاهاً مُعَلمَناً خاصًّا، لكن هذا لا يعني أنّ الانساق القديمة أزيلت، بل أعيد تركيبها وتوزيعها.

ويأتي الفصل الثالث بعنوان الاستشراق الآن، ويشمل الأقسام: الاستشراق الكامن والظاهر \ دنيوية الاستشراق \ الاستشراق الأنجلوفرنسي \ المرحلة الأخيرة.

وفيه ناقش سعيد التصنيف للشرق ولغاتهم، وكيف أنّ مرحلة الاستشراق الفرنسيّ أنشأت علاقات وثيقة بين الغربيّ كدارس وباحث وبين الشرقيّ موضوع دراسة. ومع بداية القرن العشرين، سعى الغرب للمحافظة جاهداً على الشرق والإسلام ككيانين، لكن تحت سيطرته، وكيف تمّ رفع شأن الشرق وتحويل واقعه الخامل إلى شيء من الفعّاليّة والحركة، في محاولة لاحتواء الشرق ضمن رؤيا أوربّيّة.

وكيف أعاد الغرب محاولة دراسة الشرق من جديد بعد الحرب العالميّة الأولى وما أسفرت عنه من حركات تحرّر واستقلال، وجاء الدعم الأوروبّيّ لعمليّة الاستقلال تلك من مبدأ إعادة دراسة الشرق والسيطرة عليه من جديد. ضمن هذه البنية قدّم سعيد رؤيا عميقة للاستشراق ونظرة الغرب له، وهذا ما جعل البعض يتّهم سعيد بأنّ كتابه قد خلق فعلاً معاكساً للشرق، وأنّه سعى إلى تأسيس ما يسمى «الاستغراب» كمضادّ للاستشراق، وأنّ الكتاب محاولة لفصل العالم وخلق حاجز حضاريّ وتواصليّ بين عالمين. أو بدقّة هو عمليّة تغريب الغرب.

خالد علّوش

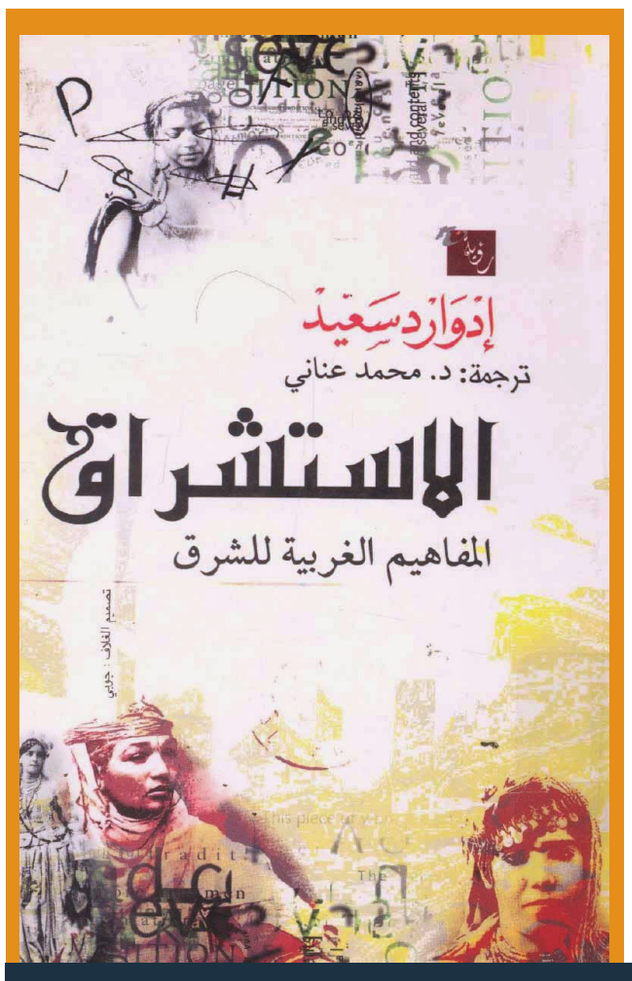

يافطات من مثل "الإسلام" و "الغرب" تقود إلى إرباكنا في واقع مضطرب.

كم هي فجة في النهاية التسميات والتعميمات والمزاعم الثقافية. على مستوى ما، على سبيل المثال، تلتقي المشاعر البدائية والمتطورة بأساليب تُسلّم الكذب لحدود محصنة ليس فقط بين «الغرب» و «الإسلام» ولكن أيضا بين الماضي والحاضر، ونحن وهم، ناهيك عن تعدد مفاهيم الهوية والوطنية التي يدور حولها خلاف وجدل لا ينتهيان.

إن القرار الأحادي المُتخذ لرسم خطوط في الرمال، وللقيام بحملات عسكرية، ولمحاربة شرهم بخيرنا، ولاستئصال الإرهاب، وكما في مفردات بول وولفويتز العدمية، القضاء على أمم بأكملها، لا تُسهِّل رؤية الكيانات المفترضة؛ بدلا من ذلك، إنها تتحدث عن سهولة توظيف العبارات العدائية بهدف تحريك المشاعر الجماعية عوضا عن توضيح وفحص وتبويب ما يجري في الواقع، وترابط الحيوات الهائلة «حيواتنا» و «حيواتهم».

ولأن هناك علاقات وثيقة بين الحضارات المتحاربة ظاهريا أكثر مما يود معظمنا أن يعتقد، أظهر كل من فرويد ونيتشه أن الحركة عبر الحدود المحروسة بعناية، تمضي في كثير من الأحيان بسهولة مرعبة.

ولكن مثل هذه الأفكار المائعة، المليئة بالغموض والتشكيك نادرا ما تزودنا بمبادئ عملية ومناسبة لحالات مثل التي نواجهها الآن. ومن هنا استقت المعركة أوامرها (حرب صليبية، الخير ضد الشر والحرية ضد الخوف، وما إلى ذلك) من فرضية هنتنغتون المزعومة حول التعارض بين الإسلام والغرب، ومنها أخذ الخطاب الرسمي مفرداته في الأيام الأولى بعد هجمات ١١ أيلول . كان هناك انخفاض ملحوظ لوتيرة التصعيد منذ ذلك الوقت في هذا الخطاب، ولكن ثبات خطاب الكراهية والإجراءات المُتخذة ، بالإضافة إلى التقارير عن جهود إنفاذ القانون ضد العرب والمسلمين والهنود في جميع أنحاء البلاد، يجعلنا نحكم أن النمط لا يزال موجودا.

سبب آخر لاستمرارها هو الحضور المتزايد للمسلمين في جميع أنحاء أوروبا والولايات المتحدة. تأمَّل في السكان اليوم في فرنسا وإيطاليا وألمانيا وإسبانيا وبريطانيا وأمريكا وحتى السويد، ستُسلِّم حتما بأن الإسلام لم يعد على هامش الغرب ولكن في مركزه.

ولكن ما الشيء المُهدِد في ذلك الحضور؟

ذكريات أول الفتوحات العربية الإسلامية العظيمة في القرن السابع الميلادي المدفونة في الثقافة الجمعية، والتي، كما أكد المؤرخ البلجيكي الشهير هنري بيرن في كتابه الشهير محمد وشارلمان (١٩٣٩)، حطمت مرة واحدة وإلى الأبد الوحدة القديمة للبحر الأبيض المتوسط، ودمرت التوليف المسيحي الروماني وأدت إلى ظهور حضارة جديدة تهيمن عليها قوى الشمال (ألمانيا وفرنسا الكارولنجية) مهمتها، كما يبدو أنه يقول، هي استئناف الدفاع عن «الغرب» ضد أعداء ثقافته التاريخيين.

ما أسقطه بيرن، للأسف، أنه عند إنشاء خط الدفاع الجديد سَحَبَ الغرب ذلك على الإنسانية، والعلوم، والفلسفة، وعلم الاجتماع والتأريخ للإسلام، الذي اعترض بالفعل بين عالم شارلمان والعالم القديم.

الإسلام في الداخل منذ البداية، حتى دانتي، العدو الأكبر لمحمد، اضطر للاعتراف به عندما وضع النبي في قلب جحيمه. ثم هناك إرث التوحيد المستمر، الديانات الإبراهيمية، كما سماها لويس ماسينيون.

بدءا من اليهودية والمسيحية، كل واحدة منها وريثة وأسيرة ما قبلها؛ وبالنسبة للمسلمين فإن الإسلام يُكمِّل وينهي خط النبوة.

لا يوجد حتى الآن تاريخ نزيه أو كشف لغموض الصراع المتعدد الجوانب بين الثلاثة أتباع – ولا واحدة منها متجانسة بأي شكل، وموحدة - الأكثر غيرة من جميع الآلهة، على الرغم من أن اللقاء الدموي الحديث على فلسطين يقدم مثالا علمانيا غنيا يمنع التصالح بينها بشكل مأساوي. ليس من المستغرب، إذن، أن المسلمين والمسيحيين يتحدثون بسهولة عن الحروب الصليبية والجهاد، وكلاهما يُلغي الوجود اليهودي مع لامبالاة كبيرة في كثير من الأحيان.

يقول إقبال أحمد مثل هذه الأجندة «مطمئنة جدا للرجال والنساء الذين تقطعت بهم السبل في منتصف المخاضة، بين مياه التقاليد والحداثة العميقة «.

لكننا جميعا نسبح في تلك المياه، غربيون ومسلمون وغيرهم على حد سواء.

ولأن المياه جزء من محيط التاريخ، فإن محاولة حراثتها أو تقسيمها بحواجز أمرغير ذي جدوى. هذه أوقات عصيبة، لكن من الأفضل أن نفكر بمفاهيم من مثل المجتمعات القوية والضعيفة، والسياسة العلمانية العقلانية والجهل، والمبادئ العالمية للعدالة والظلم، بدلا من التسكع بحثا عن التجريدات الفضفاضة التي قد تعطي ارتياحا لحظيا ولكن القليل من معرفة الذات أو التحليل المُتقن.

أطروحة «صدام الحضارات» خدعة مثل «حرب العوالم» تعزز الكبرياء الدفاعي الذاتي أكثر من الفهم النقدي للترابط الغامض لعصرنا.

إدوارد سعيد

الموت عبء ميتافيزيقي أم مشكلة حياتية

يتم طرح الموت في رواية (نفق الوجود) للروائية مها حسن، بشكل مجرد، في إطار جديد، دون ربطه بالحياة، وتجتهد الكاتبة في رسم ملامح هذا الانتقال الى العالم الآخر، فهناك عالم ما بعد الموت، منسوب للموت فقط، وتحاول أن يكون هذا العالم، مختلفاً عن العالم الذي نعيش به، داخل مسرح الموت لا يمكن بناء علاقات، ولا يمكن التعليق على القضايا، فالموت لا تفاصيل له، فهو امتداد تخيلي، وقد تم عرض الموت في الرواية على عدة مستويات، فهو مضاد للتنوع، يلغي التنوع في كل شيء، في اللون، في الطعام، في الحركة، في المشاعر، في السعادة، في الألم، في الأشكال، في المكان، وفي الزمن أيضاً، حيث يلغي هذا التقسيم الازلي للزمان، تنتهي ثلاثية الماضي والحاضر والمستقبل.

فالموت كحالة عدم، وبالتالي يتم دمج الموت على كل مستوى، وهذا المفهوم المجرد يتم تمثله وابرازه بالفقدان، وهذه الفكرة الأكثر جدارة عن الموت في الرواية، مما ساعد على كسر وحشية المفهوم المجرد، فاقترب السرد الى حالة أطلال، بالوقوف على أنقاض الحياة، تلك التي جرى عليها الحدثان، فقد كان هناك عناء واضح على طول الرواية وعرضها، وانشغال بالفكرة المجردة للموت، أو تمثيلها بقناع مقبول.

«يحدث للميت طاهر الاحساس، لكنه لا ينفعل، فهو يعتقد أنه يخاف، دون أن ينتابه انفعال الخوف، كمن يكذب على نفسه، أو غيره، حين يكون هادئ الاعصاب، فيعلن أنه متوتر» ص ٢٨.

يمكن تخيل ذلك الإحساس، لكن بشكل غير قابل للقياس، لكن مثل هذه الصور لا يمكن لها أن تتحول وأن تستقر في الوجدان، نظرا لصعوبة تمثلها في الذهن، وكذلك تستطرد «الموتى لا يكذبون، الموتى لا يمزحون، وليسوا سلبيين، بل غير منفعلين»

حياد الشعور، وهي الأخرى عملية صعب وصفها، ومجهدة في التخيل، كذلك هناك مفهوم آخر أكثر صعوبة. في ص ٣٧ « الموتى متساوون في المعرفة»

المكان في الرواية

المكان كذلك هو اللامكان، مكان يحكم قانون عدم الرجوع، عدم المطالبة بالعودة، الى الحياة طبعاً، الموت هو مكان جديد، وشروط حياة جديدة. المكان هو العالم الآخر، عالم ما بعد الموت، وهو مكان تخيلي، افتراضي. وبالنسبة لحجم المكان ووصفه في الرواية، هو على حجم غير مناسب، وكأن قصد الإقناع بالمكان كان هدفاً خفياً، فالتخيل هذا أحال إلى الافتراضي، والافتراضي أكثر سهولة، هذا الانتقال إلى التخيل والانزياح عن الواقع له اسبابه، ألا وهو الهرب من الواقع،

فأزمات الواقع أكثر صعوبة وأعقد شكلاً، والتصدي لمشكلات الواقع يصبح تورط غير مستحب، فالسرد التخيلي يبني ويفترض ويمتد من الفراغ وإلى الفراغ، فالبنية الروائية كاملة الانزياح بكل اشكالها، بنية سردية مشكلة بشكل قسري، وبالتالي لن يتمكن القارئ من استرداد شيء منها بعد قراءته، فالرواية غير متحالفة أو متواطئة مع القارئ، بل هي حالة إفراز لهذا الحس النخبوي، ذلك الذي ظهر واضحاً في ذلك العجز في ربط الأفكار ببعضها البعض، مما أجبر الروائية أيضاً على صناعة تداخلات واحداث وشخصيات بعلاقات قسرية مع المكان.

شخصيات الرواية

الشخصيات شبه مستعارة آتية من ماضي الروائية الشخصي، حتى هي ذاتها تستعير ذاتها، بشكل اعتباطي، غير نسقي، مما أدى هذا إلى عرض شخصيات كثيرة لا دور لها سوى أنها امتداد لتلك الفكرة المتخيلة، فوقعت في تسطيح بعض الشخصيات، على الرغم من أن بعض تلك الشخصيات بنيت بهدف واضح، لكن أغلبها كان شخصيات هشة بملامح غامضة لا مبرر لوجودها، ولم تكن ذات مهام واضحة، ولم تفد في صناعة العلاقات الداخلية، كما أنها ليست شخصيات متأزمة، يمكن سرد سريتها بشكل أفقي، شخصيات لم تعاني من الاقدار أو في المسار، فهي دون مسار واضح، وهي ناتج علاقات خاصة جدا بالمكان، وبالروائية، فهم موتى وعلى العادة وكما وصفت الروائية: فالموت رمادي. كذلك كانت الشخصيات رمادية دون ملامح.

علاقات الشخصيات مع المكان يظهر عليها شعور عام بالغربة وحسّ بعدم الانتماء، مما صادر النمو الداخلي في الرواية، نمو الشخصيات وتحولاتها، ونمو العلاقات وتأثيراتها، هذا التفاعل السلبي مع المكان أدى إلى جمود درامي واضح، حيث لا تحتل الشخصيات مكاناً لها، أو تتخذ معنى محدداً، أو مكان ومكانة، هي حدود مكان هلامي، في واقع افتراضي، وبالقدر الذي تستعير الشخصيات وجودها بقدر ما كانت تبتعد عن الحدث الذي يجب أن يتشكل، وتنأى عن رد الفعل،

حسّ الاغتراب لدى الشخصيات كلها تقريباً، شخصيات مرتبكة، مثل جملة معترضة، فهي على علاقة ضعيفة بماضيها، ماضي رمادي بالنسبة للجميع.

وكأن قد تم سحبها هذه الشخصيات إلى المكان بشكل قسري، وعلى الرغم من أن هذا هو ما رمت اليه الكاتبة، أخذا القارئ إلى مكان الموت، إلا أن هذه الشخصيات لم يكن وجودها هناك مقنعاً. إنها في لا مكان

فكرة العدمية

ترى ماذا كان الهدف من الرواية.. على وجه التحديد، وقد لا تكون أفضل الروايات تلك التي تقدم هدفها بوضوح، بل تلك التي تشرح وتفضح بنى أحداث وشخصيات وعلاقات تقع في خريطة الحياة أو على جانب من جوانبها، هذ الرواية جاءت لتحكي قصة عالم آخر، عالم الموتى، فهي تنفخ في قربة ما بعد اللون وما بعد الصوت وما بعد الحياة، لتعلن لنا الروائية عن تفضيلها لفكرة وفلسفة العدمية على ما سواها.

ترى ما العدمية؟ فكرياً، فلسفياً، أدبياً، ما هو الهم العدمي هنا بالعموم والخصوص؟

الكل يدرك أن العدمية كانت في نهاية التطور الفكري الفلسفي والديني في اوروبا، وهي في مركز الفكر الصوفي الشرقي، حيث تلازم هذه الفكرة توأمها، ألا وهو فكرة العبث، أي ببساطة اللاجدوى، والروائية أخذت هذه الفكرة على أنها حكم قيمة لتعلن أن اللاجدوى أكثر جدوى من اللاجدوى، أي أن اللاجدوى قيمة تتفوق بحد ذاتها على القيم الأخرى، العدمية تفترض اللاقيمة في الأساس، فلا قيمة للفكرة حتى لو كانت العدمية نفسها، والعدمية هي بالأساس اقتناع وايمان بلا جدوى القيم والأفكار كلها، وبلا جدوى العلاقات ولا جدوى الإيمان ولا جدوى الأهداف ولا جدوى العمل.

العدمية هي ليس استسلاماً للعبث فقط بل هي استلام وصف وتقرير كامل بالواقع الانساني وبمصير البشر، فهي عملية ادراك وبيان تفصيلي لكل ما يجري في العالم، فالعدمية ليست قيمة بل هي انعدام للقيم أيضاً.

فهل تمثلت الرواية فكرة العدمية بهذا الشكل؟ وهل كان هذا الهدف هذا المفهوم متضمناً في السرد الروائي؟ أم أنه أتى بشكل آخر.

ما كان في الرواية هو العكس تماما. الموت بكل أشكاله هو الموضوع، للدلالة على قيمة مفقودة، ينتصر الموت لها، ولتصبح موجودة، وبالتالي كان هناك شرخاً كبيراً بين الهدف الضمني للرواية والهدف المعلن.

نفق الوجود رواية تركيبية بسرد ممتع بعض الشيء وبدلالات واضحة في بعض الأحيان فالهم الوجودي هم انساني، هم فوق تاريخي وقد يكون هم فوق روائي أيضاً. أي فلسفي، فالفلسفة الوجودية وهي سلعة فكرية غدت مفوتة، استعادتها الروائية متكئ، دون ذلك التعمق المفيد في شكل أزمة أو في حالة تاريخية أو حدثية أو معرفية، هذه اللا المستعارة من دونكيشوت الشعر فرديناند بيسوا، غير المنتمي، كان هو المطار الذي طارت منه رواية مها حسن خارجة من كابوس الوجود ودخلت في نفق اللاوجود.

لكن أليست هذه الرواية بكل مصادفتها

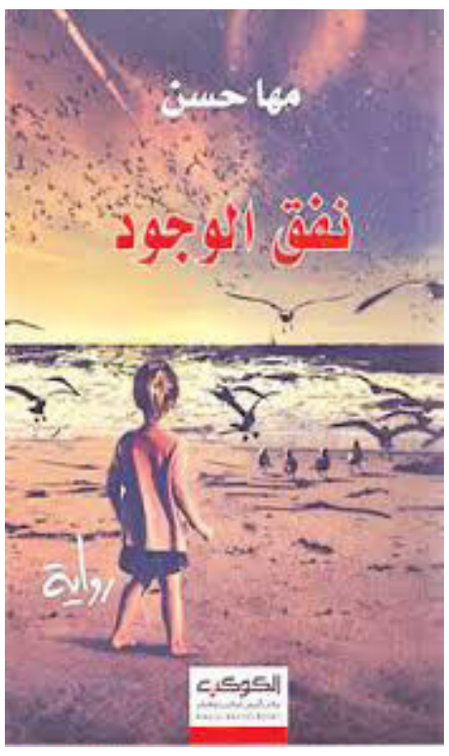

وتلقائيتها كانت ودلت ورافقت وواكبت تلك الأحداث التي تجري في مسرح سوريا التي جاءت منها الروائية؟ أوليس هذا المكان هو ذلك الاحتمال لما يجري فوق أرض بلادها؟ أليس هذا الموت بلا معنى هو ناتج مسبق أو ناتج لاحق لما نشاهده يجري هناك الان

فالموت يذكرنا بالواجب تجاه الحياة، فهل هذا الهدف كان متضمناً في الرواية؟ أليست أفكار الأديب جزءاً من تاريخ شعبه؟

نفق الوجود، رواية صادرة عن دار رياض الريس سنة ٢٠١٤ في ١١٥ صفحة من الحجم المتوسط.
أحمد هلال

الفنّ دون تفكير

إنّ ما يجعل المرء يفكّر بالمسلّمات البديهيّة أحياناً، هي لحظات عشوائيّة تجابهك دون درايةٍ بالأمر. تقف حيالها بشكل مندهش ومثير، وربّما قد تضحك أحياناً.

في إحدى الصباحات التقليديّة، بينما كنت احتسي قهوتي، وفي تصفّح إحدى وسائل التواصل الاجتماعيّ، صادفني مقطع فيديو لشاعر سوريّ شابّ، وله حظوة لا بأس بها في الأوساط الثقافيّة، ومضمون الفيديو هو قصيدة بالعامّيّة عن الفرق الذي يمارسه الذكر في علاقته بين أمّه وحبيبته كسلوك.

وبعيداً عن موافقتي أو عدم موافقتي لما جاء في قصيدة ذلك الشاعر الأشوس، لكنّها كانت اللحظة العشوائيّة التي دعتني للتأمّل لساعات في موروث قديم بخصوص الأمّ.

يركّز الشاعر على أنّ الشابّ يعامل أمّه بطريقة قاسية، وربّما قد يغضب في وجهها أحياناً، بينما يتحوّل إلى حمل وديع ومهذّب أمام حبيبته. ويتحدّث بطريقة ناقدة عن ذلك السلوك.

بالطبع، الجميع وفي كلّ دول العالم، يدركون أهمّيّة الأمّ على المستوى الشخصيّ، لكن ما استوقفني في نظرة الشاعر هو بعض المغالطات التي أنتجتها ثقافتنا الاجتماعيّة.

بداية، فإنّه من الطبيعي، ومن سير الحياة أن يتعامل أيّ ذكر مع حبيبته بطريقة ألطف من تعامله مع أمّه، وهذا يخضع لاعتبارات نفسيّة، وبنفس القدر الذي يمارسه الشاب مع أمّه، فإنّ الفتاة تمارسه مع والدها ومع حبيبها. إذاً فالمسألة لا ترتبط بالذكورة، بقدر ما ترتبط باختلاف إيديولوجيّ لجيل مختلف بطريقة تفكيره عن الجيل السابق. إنّها مسألة معقّدة قليلاً.

إنّ الأمّ بطبيعتها كائن عاطفيّ، يشعر بالخوف على أبنائه، على اعتبار أنّ الأبناء هم المنجز الوحيد لتلك الأمّ والأب على حدّ سواء، ذلك الخوف الذي يتبلور في الوعي الناشئ للجيل الحديث على أنّه اختناق اجتماعيّ، والبحث عن خلاص منه، تلك العلاقة مع الأهل، تحتاج مخرجاً، ليس فقط نفسيًّا، بل مخرجاً سلوكيًّا، متبلوراً بحاجات فيزيولوجيّة بديهيّة، والذي يتجسّد بإيجاد شريك مقابل له (ذكراً وأنثى) على نفس المستوى العمريّ. انطلاقاً من هذه البديهية تنخلق المفرزات السلوكيّة بالرفض لآلية التفكير العائليّة القديمة، إنّها حالة صراع ما بين الرغبة بالحفاظ على حياة الأبناء من وجهة نظر قديمة، وبين البحث عن خلاص من تلك الإشكاليّة العائليّة التي تطبع الجيل اللاحق بآليّات مشابهة له.

العائلة هي تجمّع ثقافيّ واجتماعيّ، يريد الحفاظ على نفسه من تهديدات التفكير الجديد، ومن هنا تبنع محاولة خلق مشابه له، وهذا ما يتمّ رفضه من الجيل اللاحق، نتيجة متغيّرات الحياة والتفكير والسلوكيّات.

نعود قليلاً إلى مسألة الأمّ، وهي نفس المسألة التي يدركها الجيل اللاحق، من أن تشكيل العائلة ستحوّلهم تدريجيًّا إلى هيكل للحفاظ على بنية ثقافتهم ضدّ أبنائهم الذين سيولدون فيما بعد. فالحبيبة ستصبح زوجة وأمًّا، وبالتالي ستمارس نفس الخوف الاجتماعيّ، وسيشمل الملل جزءاً من الحياة وروتينيّتها، فحبيبة اليوم اللطيفة، ستصبح امرأة تقليديّة مع تقادم الأيّام، والذكر المبهر سيصبح رجلاً مملاً، وهذا ما يدركه الجميع. ذلك الإدراك المسبق، يجعل من فرصة اقتناص الحياة السريعة ومحاولة امتلاك الشعور العاطفيّ واللحظيّ بكلام لطيف مع من نحب، هو ضرورة قبل أن يصبح شابّ اليوم عجوز الغد.

بالطبع، كلّ هذا ليس مبرًّرا لسلوك انفعاليّ اتّجاه الأهل، لكنّ السؤال: إلى أيّ مدى يمكن للشخص الذي يسعى لشعور وحياة جيّدة في عالم متسارع أن يبقى محافظاً على هدوءه وانضباط أعصابه في لحظات معيّنة، وخاصّة أثناء النقد الدائم الذي يمارسه الأهل على أبنائهم؟

من هنا، تصبح الحبيبة أو الحبيب هو لحظة الخلاص الآنيّ من ضغط الحياة ومن النقد الذي يجابه الجميع داخل العائلة والشارع والعمل .. إلخ.

إنّ الدعوة هنا ليست من باب تبرير للتعنيف اللفظيّ اتّجاه من لهم فضل في تنشئتنا، بقدر ما هي محاولة تسليط ضوء بسيط على مقدّسات أخذناها ضمن ثقافات لا تناقش أبسط المواضيع.

فالأمّ في مجتمعاتنا لها هالة تقديسيّة أُخِذت من تشريعات دينيّة واجتماعيّة تقليديّة، ولو أردنا الوقوف قليلاً عند مقارنة صغيرة وتحليل، فإنّنا سنكتشف أنّ تلك الأم المقدّسة هي في الأصل محميّة لتنتج تلك الكائنات، ومن يحميها فعليًّا على المستوى الثقافيّ والاجتماعيّ والاقتصاديّ، هو الزوج، أو الأب، نتيجة المجتمع الذكوريّ الذي نعيش جميعنا به، وطبعاً لا يخلو الأمر من استثناءات.

ولست هنا بصدد تفريق جنسانيّ، إنّما فقط عبور سريع لفكرة قد تبدو سخيفة لدى البعض، لكنّها تحمل من واقعيّتها ودقّتها وصحّتها الشيء الكثير.

ما يثير استغرابي فعليًّا هو نقد جميع المثقّفين واللامثقّفين للسلوك الانفعاليّ اتّجاه الأهل، على الرغم من أنّ الجميع يمارسه، ليس لرغبة الممارسة، بل لأنّها احتياج نفسيّ للخلاص من ضغوط اجتماعيّة، وإيجاد بديل. ورغم أنّ ذلك البديل سيتحوّل فيما بعد إلى قدر مشابه لصيغة الأهل ضمن دورة الحياة.

إنّ المسألة هنا هي خيط رفيع بين ما نعلم من مقدّس وبين ما نريد من واقع، وعندما يتماهى المقدّس مع الواقع، تصبح الثقافة الناشئة تعبيراً عن إحالات سطحيّة لأفكار قد تبدو عميقة لكنّها وهميّة ولا تؤدّي غايتها الفنّيّة، سوى استجراراً لعواطف لا تخضع لأيّة موازنات ثقافيّة، فيصبح التعبير عن الأفكار ضرباً من الانحطاط الثقافيّ دون تجديد، ودون بحث معمّق عن جوهر ما نقول وما نكتب.

في نهاية الأمر، ما أحاول قوله ببساطة، هو أنّ يحاول الشخص إيجاد طريقة تفكير وتحليل لمسألة ما، قبل أن يخرج لنا بمئات الأشعار التي تطفو فوق سطح هامشي وتافه، بإعادة خلق المقدّس بمجالاته كافّة.

ومثال الأمّ والحبيبة، هو فقط أتى لشرح فكرة إيجاد نصّ لا يمتّ لأيّة موازنة عقليّة وفنّيّة وليس تقليلاً من شأن الأمّ أو العائلة أو الحبيبة، فاحترام البشر على اختلاف أنواعهم يخضع لموازنات إنسانيّة وليس موازنات ما هو مقدّس.

علي الأعرج

المقدّمات المستعملة في هذا الفصل جدليّة*

ابن رشد

بو الوليد محمّد، اشتهر في الغرب باسم Averroes واشتهر باسم ابن رشد الحفيد. ولد في قرطبة ١١٢٦ وتوفّي في مرّاكش ١١٩٨، هو فيلسوف وطبيب وفقيه وقاضي وفلكيّ وفيزيائيّ عربيّ. له كتب كثيرة أشهرها: كتاب فصل المقال، وهو من المصنّفات الفقهيّة والكلاميّة. وقد أكّد فيه ابن رشد على أهمّيّة التفكير التحليليّ كشرط أساسيّ للتفسير. كتاب تهافت التهافت، الذي كان ردّ ابن رشد على الغزالي في كتابه تهافت الفلاسفة.

ثمّ قال:

بم تنكرون على من قال من الفلاسفة إنّ ذلك ليس بزيادة شرف، فإنّ العلم إنّما احتاج إليه غيره ليستفيد به كمالاً؛ فإنّه في ذاته ناقص، والإنسان شرّف بالمعقولات، إمّا ليطّلع على مصلحته في العواقب في الدنيا والآخرة، وإمّا لتكمل ذاته المظلمة الناقصة، وكذا سائر المخلوقات؟

...

قلت:

هذه حجّة من يقول إنّه لا يعرف إلّا ذاته.

وقد حكينا مذهب القوم في الجمع بين قولهم إنّه لا يعرف إلّا ذاته وإنّه يعرف جميع الموجودات. ولذلك يقول بعض مشاهيرهم إنّ البارئ سبحانه هو الموجودات كلّها، وإنّه المنعم بها، فلا معنى لتكرير القول في ذلك.

والمقدّمات المستعملة في هذا الفصل مشهورة جدليّة، لأنّها كلّها من باب قياس الغائب على الشاهد، اللذين لا يجمعهما جنس ولا بينهما مشاركة أصلاً.

وبالجملة فكلامه في هذا الفصل مع ابن سينا، لما احتجّ بقول من يقول من الفلاسفة إنّه يعلم ذاته ويعلم غيره، إذ لابدّ أن يعرف ما فعل.

وجملة المقدّمات التي يحكيها عن ابن سينا في تثبيت هذا المذهب، ويستعملها هو أيضاً في معاندته، هي مأخوذة من الأمور المعروفة من الإنسان، ويروم نقلتها غلى البارئ سبحانه، وذلك لا يصحّ لأنّ المعرفتين مقولة باشتراك الاسم. وذلك أنّ ما يقوله ابن سينا، « إنّ كلّ عاقل يصدر عنه فعل ما فهو عالم بذلك الفعل»، هي مقدّمة صادقة، لكن لا على نحو علم الإنسان بالشيء الذي يعقله. لأنّ عقل الإنسان مستكمل بما يدركه ويعقله وينفعل عنه، وسبب الفعل فيه هو التصوّر بالعقل.

وبما يوجد في هذا الجنس من المقدّمات يردّ عليه أبو حامد: وذلك أنّ كلّ من يفعل من الناس فعلاً، ويلزم عن ذلك الفعل فعل آخر، وعن الثاني ثالث وعن الثالث رابع، فليس يلزم أن يعرف الفاعل العاقل اللوازم التي تلزم عن فعله الأوّل. ويقول له إنّ هذا الأمر موجود في الذّ يفعل بإرادة، فكيف إذا وضعتم عالماً لا يفعل بإرادة؟ وإنّما قال هذا لأنّ الذ اعتمد هو، في تثبيت العلم للبارئ سبحانه، تثبيت الإرادة له.

ولهذا قال: فهذا لازم لا جواب عنه: يعني في أنّه ليس يلزم أن يكون الأوّل يعقل عنده من الغير إلّا الفعل الذي لزم عنه أوّلا وهو العلّة الثانية والمعلول الأوّل. وكذلك ما حكى عنه من أنّه لو كان يعقل ذاته ولا يعقل غيره لكان الإنسان أشرف منه.

وعلّة وجود الإقناع في هذا القول أنّه متى توهّم الإنسان إنسانين، أحدهما لا يعقل إلّا ذاته، والآخر يعقل ذات غيره، حكم أنّ العقل الذي يعقل ذاته وغيره أشرف من الذي يعقل ذاته ولا يعقل غيره.

فأمّا من عَقْلُه باشتراك الاسم مع هذا العقل، من قبل أن أحدهما فاعل لا منفعل، والآخر منفعل لا فاعل، فليس تصحّ هذه النقلة. ولمّا احتجّ على ابن سينا بمقدّمة يسلّمها هو في كلّ ذي عقل، وهو أنّ الأكثر علماً أشرف، وكان فيما زعم أنّ نفي الفلاسفة الإرادة، ونفيهم الحدوث، هو الذي أوجب عليهم أن لا يقدروا أن يثبتوا أنّ الأوّل يعلم غيره لأنّه إنّما يعلم الفاعل العاقل مفعوله الذي هو غيره من حيث هو مريد له قال «إنّ هذه الشناعة إنّما تلزم الفلاسفة فقط».

يريد كون المعلول الذي هو الإنسان أشرف من العلّة الذي هو الخالق سبحانه. لأنّهم إذا نفوا جدوث العالم كما زعم نفوا الإرادة، وإذا نتفت الإرادة انتفى أن يعلم ما يصدر عنه. وهذا كلّه تقدّم أنّه ليس بصحيح أعني نفي الإرادة عن البارئ سبحانه وأنّما ينفون الإرادة عن البارئ سبحانه وإنّما ينفون الإرادة المحدثة.

***(تهافت التهافت. مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، ١٩٩٨ – من ص٤٣٠ وما بعدها)**

قبل الثامنة صباحاً بتوقيت حلب

أعاني مزاجاً متقلّبا بسبب الحمى، ووقع ساعتَيّ التقنين في هذا الجوّ الحارق كما الكارثة، أغفو وأستيقظ مراراً وتكراراً على رتم صوتٍ بعيد لمدينةٍ غارقة في السهاد، تتسلل من قدرها ولو للحظة... بخفّة سارق، لتنثر شعرها عصافيرَ، وحكاياها تكاسي تصدح فيها فيروز بعناد يفوق عناد مولّدات حي الجميليّة..

لتبدأ دورة الحياة في هذا الحيّ العصيّ على الموت، أسراب من الحمام فوق جامع الصدّيق تعلو وتنخفض كما وتيرة القصف في حلب الشرقيّة، وأصوات الباعة في تحدٍّ للموت مهيب. فكلّ شيء هنا ب١٠٠ ليرة لاغير «من الإبرة والخيط وأنت طالع « ... الله يرحم أيّام «كلّ شي بعشرة» ترددها النساء الحليبيّات يوميًّا على مسمع صاحب البسطة الذي يغلي على صفيح من انتظار «رح تشتري البيل ياحجّة والا لأ» ؟؟

أردّد كالببغاء «رح تشتري البيل.. والله رح تشتري البيل « ومن لايحتاج «البيل اللعين» في هذه الأيّام العصيبة، لكنّ للمفاصلة طعم آخر لا يدركه إلّا ذوو الدخل المحدود.

لا يدركه إلّا نحن، نحن الذين نستحقّ وبجدارة رقماً قياسيًّا يضاهي «رقم جينس» بتقديم شروحات مفصّلة عن معنى الدخل المحدود.

لأتساءل ببلاهة أن: لماذا علينا أن نكنّى «بذوي الدخل المحدود» في بلدٍ غير محدود إلّا سياسيًّا بحثاً عن انتصار! على شكل «عشر ليرات سوريّة» فقط لا غير !! وفي بحثي الحثيث عن راحة، أدخل «عبّارة السيديات» كما يسمّونها. تماماً كما كان يفعل أخوتي في بحثهم عن لعبة جديدة. لعلّهم يعثرون. ولعلّي أعثر على خطاهم في هذا البلد الممزّق غربةً.

لقد أصبحنا اليوم لعباً في حاسب شخصيّ ياصديقي. شخصيّات خرافيّةً. نتحرّك عشوائيًّا. بلا انتظام. كمن يهرب من كلّ ما خلقت البشريّة من أشكالٍ للموت تنهال علينا. تماماً، تماماً كما كنّا في لعبتك المفضّلة « كول أوف ديوتي- نداء الواجب».

لقد لبّينا الواجب. متناسين أنّنا لا نستطيع حفظ اللعبة. كما كنّا نفعل عند استشعار الخطر. لنعيد المحاولة ألف مرّة حتّى نعبر الحاجز المتربّص فينا حدّ الموت. فالموت هنا مرّة، مرّة واحدة، على شكل طلقة. قنّاصة هاون أو حتّى مفخّخة. وما أدراك مالمفخّخات! لهنّ هيبة أخرى، ووقع

ثقيل... يعطينك رفاهية الموت بلا ألم، يخلّصنك وأهلك من ورطة المقابر، ويسلبنك في هذا البلد الغارق ورطات، حالةً من سلام داخليّ في تشاهدك الأخير قبل الموت. أنّ لا إله إلّا الله.

ولكن من يدري!؟

لعلّك تتشاهد صباحاً وقبل كلّ خروج، لعلّك تردّدها عند كلّ منعطف، وأمام كلّ حاجز طيّار، وعند كلّ سيّارة بلا هويّة.. مركونة بانتظار أمر، لعلّك تردّدها قبل النوم وبعد الاستيقاظ، قبل الطعام وبعد قيلولة الظهيرة. من يدري لعلّك تردّدها حتّى قبل أداء واجبك الزوجيّ...!! غرباء عن بعض، زوجان حديثا العهد، تائهان في يوميّات مدينة حلب. في لحظة ذهول على شكل شريط تحليل حمل وإشارة بالإيجاب، كافية لتحطيم ما تبقى من حدود الصبر.

فلا سكاكين في مطابخ هذه المدينة. ولا مطابخ في شوارعها!! وفي شوارعها تصدح «الست» أن «إنّما للصبر حدود ...» ودوريّة شرطة تأمر بتغيير الشريط إلى «أنت عمري» وحالة من فوضى وهيجان وجنون مضحك يُدخل متسوّلا في ورطة مع رجل الأمن، وصراخ يرتقي حدّ المناجاة «والله ما عم أضحك ياسيدي..هي رنّة الموبايل».

أتأمّل جهازي المحمول الخارج عن الخدمة منذ شهور، أقلّب في قائمة أسماء أضحى نصفهم اليوم خارج الخدمة أيضاً. لتأخذني الذكرى بعيداً جدًّا، يوم استطعت امتلاك جهاز محمول، يالله... ياللـــــه كم كانت أبسط الأمور أكثرها مدعاة للسعادة؟!

أشتاق سعادة على شكل صوت، صوتٍ من الجانب الآخر للعالم، أشتاق رنّة موبايل، ورقماً غير كلّ الأرقام، وحبًّا قتلنا شغفاً لأردّد كلماته كسمفونيّة، كوداع آخير، تذكّري يا ميس، سورية تحتاج منّا الكثير!

...ماذا أعطيكِ إذاً؟ وهل يستطيع اليتيم أن يعطي، ونحن اليوم يتامى الوطن والحبّ؟ ماذا نعطيك إذاً وفاقد الشيء لايعطيه؟ نحن الذين نحمل درجة الدكتوراه في كلّ أشكال الفقد، ابتداءً بالماديّة وليس انتهاءً بالأمنيّة. «... يا خالة لو سمحتِ عندي أمنية صغيرة. اشتري منّي أيّ شغلة، والله عيلتي طفرانة من الجوع، أيّ شغلة ب ٧٥ عاملين أوكازيون.. تنزيلات تنزيلات ...»

وأذكر يومها حين قال: سنُباع ونشترى كما التنزيلات، بأبخس الأسعا، وقد نُصدّر كما «البالة»، حيث نغسل هناك، ونكوى في أفضل الحالات، سنحمل «تيكتات جديدة» بأسعارنا الجديدة وسنبدو بحلّة جديدة، بذات المضمون، ممزّقين مرتّقين، مصبوغي المشاع، مهملين ربّما لعشرات السنين، أو أكثر.

اتركني إذاً هنا، قطعة أثاث في محلّات الموبيليا المنتشرة في شارع «قسطاكي حمصي».. أو علّقني مسبحة ب ٩٩ حجر من ورع وزهد، أو انثرني كما السمسم فوق «معروكك المفضّل من فرن الشرق الأوسط» ...

أو قدّمني طبق حلوى فاخر من «فستق حلب» واجعلني عشاءً بسيطاً على شكل «أقراص فلافل» واسمعني لحناً مكرَّرا في مقاهي هذه المدينة، كما كنت تحلم، اسمعني غُصين بان، قدًّا ميًّاسا..!!

ميس باشا

السفر برلك

جدّي الذي ناهز
التجعيدة العاشرة
في جبينه
في تراكم الخبرات كلّ عشر
كان يقول بما معناه في العربيّة
الطارئة علينا
حتى الحجارة
إن انزاحت عن مستقرّها
المزمن
انزاح عنها ثقلها. .

وفي أضرار (التتن) على الرئات
والقلوب ..
يبتسم
مع إغماضة تختزل عمراً
من الدهشة
بنيّ ها أنا أدخل قرناً آخر
من الوجع
بكامل حزني
بنيّ هل تضمن إن غادرت (التتن) أن
يحول عليّ القرن قرنين؟؟

أمّا القلوب ....
فتبقى صغيرة
لا تغادر العتبات
التي
هي الفسحة لمرور الضيف
إلى صدر البيت وربّه

وهي
الرمز في اللغة لرفعة المضيف
المتناسب عكساً مع وطاوة المقام
في حضرة الضيف...(فالعتبات لنا)
نحن الرجال
ولكم الصدر

وهي مكان للاغتسال
بعد جولة
ليليّة محفوفة
بمخاطر استيقاظ
واحد من الأبناء الكثر
فتخبو الرغبة
وينخفض اللهاث
قبل الفجر
وبلوغه
والديك وصياحه
والراعي الذي ما زال يتأخّر
في سَوق (عنزاته) إلى تلك الشعاب
لمضغ ما طاب لها ....

والندى
القلوب لا يقتلها (التتن) بنيّ
تقتلها قلّة الحبّ .... والرحيل
نعم جدّي القلوب تبقى صغيرة
حتّى يكاد القليل من البرد
يرديها

فما بالك بكلّ هذه البرودة ؟؟!!
نعم حتّى الحجارة إنْ غادرت
أماكنها يغادرها الثقل ....

والقلوب إنْ غادرت العتبات
تشيخ قبل
قدوم خريفها
وتذبل
قبل انهمار المطر.

مصطفى حمو

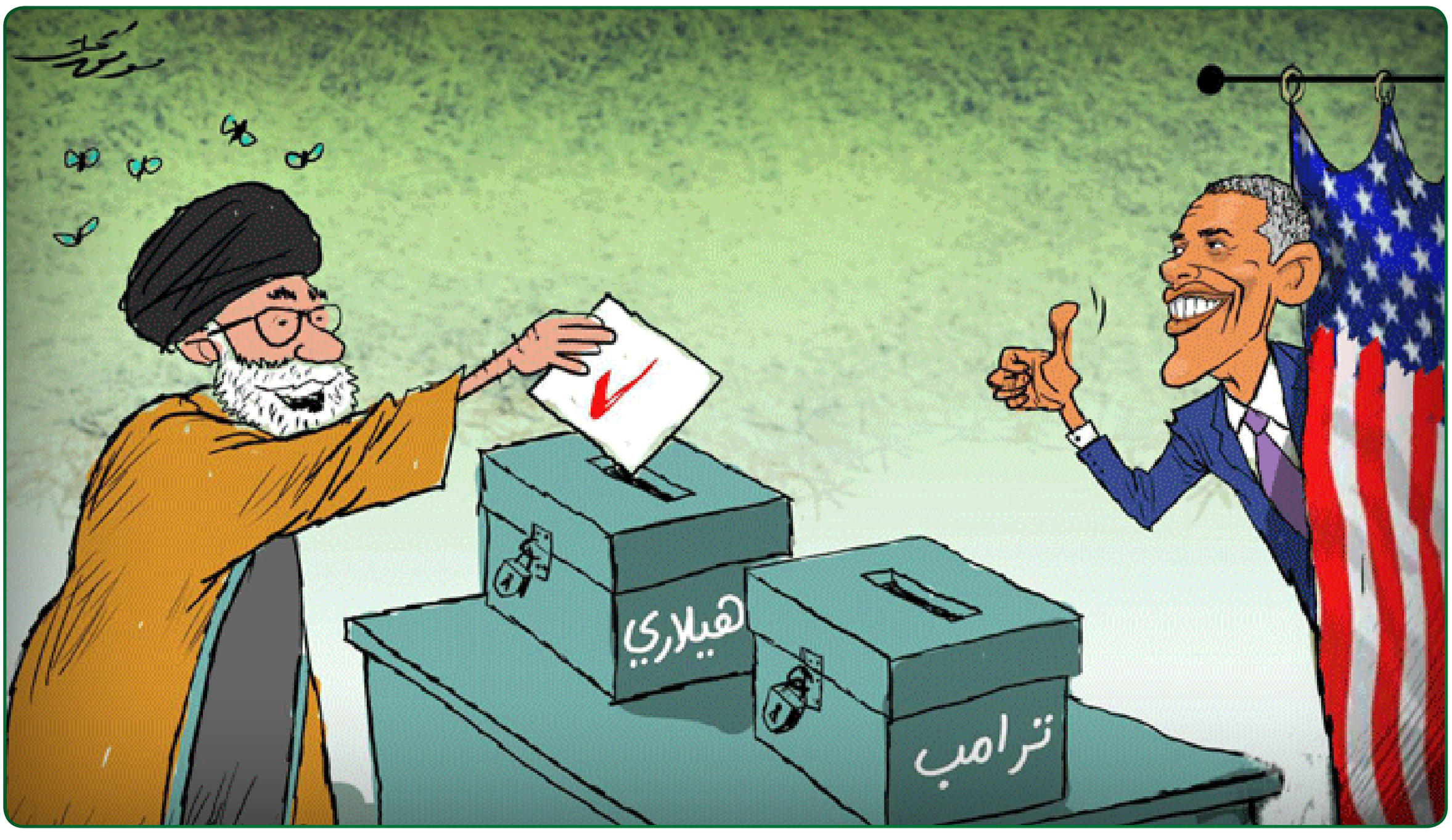

بـــومـــة أم الـــقـــويـــق

يحكون الآن في حلب القديمة
عن بومة
لم يسمعوا بها إلا في الحكايا
وبعض من فقرات في علم الأحياء
عن الطيور الجواثم في بلاد الشام
لكنها لا تحط في الخرائب
وليس لها نعيب
وفي المصابيح المكسورة تنام
عيناها، كما كل العيون الآن
لا يرفّ لهما جفن
ساهمتان في السماء
عسليتان
بكحل شفيف
ونظرات منكسرة، كما لو أنها في عتاب
لم يرها أحد تتململ
أو تطير كمذعورة
حين تنهمر القذائف
وحين تساءلت الحارات

من أين للطير كل هذي الجسارة؟
ومن أين تقتات؟
إذا ليس حواليها من زاد
سوى فتات البارود
والدخان
قال بعض النسوة :
إن عجوزا قضى عمره في التين
بشرنا
قال: هي أم القويق
أم السهر
وليست من البواشق
فلا تقتات على لحم
أو تجفل في العش المجاور عصفورا
وعلى المرضعات أن يطمئنن
فهي لا تواجه طفلا وجها لوجه
ولكنها حين ترابض في مكان ما
فثمة ثعالب في الجوار
يقول الصبية في الملجأ

إن أستاذا في الثلاثين
قرأ لهم قصة عن بوم
يقض مضجع الغرباء
عندما يسلبون الناس بيوتهم
يصطاد فراشات مخمل الدم في أرائكهم
ويقضم خيطان الستائر
ولأنه خفيف الطيران
لا يرونه
وليس بوسعها الأضواء الكشافة
أن تضع عينها بعينه
يضع لهم في أقفال الأبواب
بعضا من ريشه
فلا تعود تنغلق على نعيب يحز بقحف الرأس
فلا ينامون
يسلح برازا صمغيا
مثلما على زناد البنادق
في سيقان جزماتهم
وفي الليل، في عز الليل، يردد كصدى

وهو طير الصدى
صرير عظام الموتى في المقابر القريبة
فيربطون زوجاتهم إلى أرجل الأسرة
كالمجذوبات
يحكون في حلب الآن
إن بوما أسرابا على أسلاك الكهرباء

سلام حلوم

عودة ناجحة لثلاثة من رواد محطة الفضاء الدولية

عاد ثلاثة من أفراد طاقم محطة الفضاء الدولية إلى الأرض في ساعة مبكرة من صباح أمس الأحدغرد النص عبر تويتر، بعد أربعة أشهر قضوها في الفضاء.
وذكر بيان صحفي من وكالة الفضاء الروسية (روسكوزموس) أن وحدة إنزال لمركبة «سويوز أم.أس» الفضائية هبطت بسلام في سهول كزاخستان وعلى متنها الأميركية كتلين روبينز من إدارة الطيران والفضاء الأميركية (ناسا) والياباني تاكويا أونيشي من وكالة استكشاف الفضاء اليابانية والروسي أناتولي إيفانشين من روسكوزموس

ماهو الـ "chatbot" ؟

قدّمت شركة «أفايا» في أسبوع «جيتكس» للتقنية ٢٠١٦، دراسة تثبت إمكانيّة أن يحفظ نوع خاصّ من الزجاج البيانات الشخصيّة. إذ يتمّ استخدام الليزر في مختبر خاصّ بجامعة ساوثهامبتون في جنوب بريطانيا، لإدخال بيانات المعلومات إلى الزجاج، لإنشاء نظام للتخزين، يمكن أن يدوم لمليارات ومليارات السنين القادمة، وهو ما سمّي بـ "chatbot" فهل يمكنه تسهيل حياتنا؟

نسب ثاني أكسيد الكربون تتجاوز كلّ الحدود

قالت المنظّمة العالميّة للأرصاد، إنّ الظروف المناخيّة ساعدت في رفع مستويات ثاني أكسيد الكربون لتفوق متوسّط نسبته خلال السنوات العشرة الأخير. ورصدت إحدى محطّات المتابعة الجوّيّة في هاواي تجاوز حدّ ٤٠٠ جزء في المليون، وعلّق الخبراء بأنّ العالم لم يشهد مثل هذه النسبة منذ نحو ثلاثة إلى خمسة ملايين عام.

كتاب شعريّ جديد

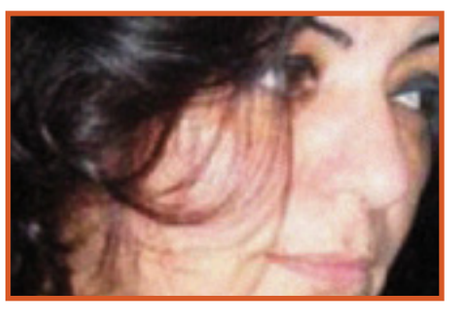

سيصدر خلال أيّام عن منشورات المتوسّط للشاعرة السوريّة «رشا عمران». مجموعة جديدة بعنوان «التي سكنت البيت قبلي».
تقول «رشا عمران»:
بقلم أسود باهت أرسم على الحائط الأبيض ساعة كبيرة
وأحدّد الوقت على الثانية عشرة ... ثمّ كلّ يوم أنتظر أن يتغيّر الوقت بلا فائدة
شيئاً فشيئاً بدأت خطوط الساعة تختفي الدائرة .. العقارب ...الأرقام .. وحده رقم ١٢ بقي كما هو: ظلّ سود باهت في فراغ الحائط الأبيض.

أمر قضائيّ لـ «ياهو» بفحص الرسائل

أرسلت أكثر من ٣٠ منظّمة حقوقيّة رسالة إلى مدير المخابرات القوميّة الأميركيّة، تطلب منه نزع السرّيّة عن الأمر الذي صدر لياهو، والذي أدّى إلى فحص رسائل البريد الإلكترونيّ العام الماضي بحثاً عن بيانات تطابق رمزاً رقميًّا محدّدا. وجاء فيها: «نعتقد أنّ مثل هذا الفحص قد يمثّل انتهاكاً لقانون مراقبة المخابرات الأجنبيّة وقانون حقوق الإنسان الدوليّ»

ألمانيّة فوق الثمانين تبحث عن زوج

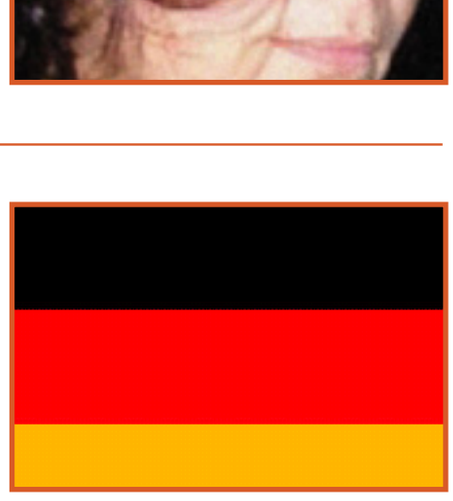

اتّصلت عجوز - تجاوزت الثمانين من عمرها ولم تفقد الأمل برقم هاتفيّ شاهدته في أحد الإعلانات، ليردّ عليها محتال، ويطلب منها ٢٩٠٠ يورو، لقاء مقابلته لها في بيتها. وبعد أن فاوضت العجوز المحتال وجعلته يتنازل عن بضعة مئات من اليوروهات، حوّلت له المبلغ، وعندما لم يأت أبلغت البوليس الذي تابع الاتّصال إلى أن قبض على المحتال.

رئيس التحرير
بسام يوسف
مدير التحرير
بشّار فستق
المحرر التنفيذي
حسين برو
الاخراج الفني
مازن عودة
هيئة التحرير
غزوان قرنفل - ثائر موسى - عزّة البحرة
العلاقات العامة
نور العبدالله
الصفحة الرياضية
عروة قنواتي
الموقع الإلكتروني
محمد الشبلي
عضو الشبكة السورية للإعلام المطبوع
SNP

الآراء الواردة في كلّنا سوريّون تعبّر عن رأي الكاتب و لا تعبّر بالضرورة عن رأي الصحيفة